

جامعة محمد خيضر بسكرة  
كلية الآداب و اللغات  
قسم الآداب و اللغة العربية



# مذكرة ماستر

لغة وأدب عربي  
دراسات لغوية  
لسانيات عربية

رقم: 19ع

إعداد الطالب:

هنا غشة

يوم: 11/06/2024

## البعد التداولي للخروج عن مقتضى الظاهر في لغة القرآن الكريم

### لجنة المناقشة:

|                 |                           |         |                       |
|-----------------|---------------------------|---------|-----------------------|
| رئيسا           | جامعة محمد خيضر - بسكرة - | أ. د.   | عبد القادر عبد الرحيم |
| مشرفا<br>ومقررا | جامعة محمد خيضر - بسكرة - | أ. مح أ | باديس لهويل           |
| مناقشا          | جامعة محمد خيضر - بسكرة - | أ. مس ب | حاتم زيدان            |

السنة الجامعية: 2023 - 2024

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على عبده ورسوله وخليته وصفوته من خلقه نبينا وإمامنا وسيدنا محمد بن عبدالله، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهُده إلى يوم الدين وبعد:

فالقُرآن الكريم هو حبل الله المتين ونوره المبين، وهو الصراط المستقيم، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجر. وقد تكفل الله عز وجل بحفظ هذا الكتاب من التحريف والتبديل قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:9]، ولهذا حرصت الأمة على هذا الكتاب فحفظته في الصدور، وسجلته في السطور، وبذلت في سبيل دراسته ومُدارسته كلَّ الوقت والجهد فحرص جهاذة الأمة وعلمائها على العناية به عناية خاصة وألوه اهتماما بالغًا، وكان من ضمن هذه الدروس الدرس البلاغي فعنى هو الآخر بالقُرآن الكريم، وكان له حظٌ عظيم -إن صحَّ القول- في اكتشاف وتبْحَث الخطاب القرآني، مراعاةً لمناسبة النزول، ومعرفة أحوال السامعين النازل عليهم، فكان لا بدَّ من مراعاة ظروف الأحوال ومُلابسات المقام ومناسبة المقال للسامعين، ليصحَّ استقبالهم له ليتحقق المطلوب. وحاشا أن يكون هذا تشكيكا في صحّة القصد، إنّما دليلا وإثباتا على الحجة البالغة والإعجاز التام لكلام الله الذي وإن سعى البشر أن يأتوا به لن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا أو أعانهم عليه خلقٌ آخر.

وعلى هذا الذكر الأخير، فقد تحدّاهم الله عزَّ وجلَّ تحدّيا صريحا وهم أهل اللسان وأنّه كان عربيا لفظا وتركيبا ووفق سُننهم في القول وأكثر ما يدلّ على ذلك استشهادهم بما ورد فيه بأبيات الشعر الجاهلي ودواوين العربيل وكانوا حتى في تفسيرهم لبعض آياته يلجؤون لأبيات الجاهلية والعرب لفهمها، فما كان منهم إلا أن سلّموا واستكانوا للحقيقة

المطلقة التي لا يشوبها غُبار، بأنه كلام عزيز معجز منزّه يعلو فوق كلّ لفظ ولا يُعلى عليه.

وكان ممّا سار عليه اللفظ القرآني والتزم بمعاييره مراعاة الحال وأحوال المخاطبين وتنزيل الكلام بما يقتضيه المقام والذي يعدُّ جوهر البلاغة، وهو الجانب الذي سأسلك عليه بحثي -بحول الله- فالقرآن التزم بهذه المعايير وضمّنها في لفظه، ولا خلاف في هذا كون هذه الظاهرة متأصلةً في كلام العرب بل في كلام البشرية قاطبة. فدلالات القرآن المختلفة النازلة نزول المخاطب السامع قدرا وفهما وموقفا وحالا على حدّ سواء، فحتّى الآيات والسور على اختلافها نزلت نزولا محكما، فقد احتوت المكيّة منها خاصة في أسلوبها الترغيب والترهيب والإجلاء والتعظيم لاسم الله ووحدانيتها وبيان البراهين والحجج المحكمة للمشركين، وكانت المدنية تتضمّن ما يُناسب ما نزلت فيها فيوافق بين خصوصية المقام وظرف الحال، فيعمد إلى الحذف حين يكون في الدّكر إطناب وتكرار، ويميل إلى التّقديم عن ظاهر التّأخير إن كان تعظيماً أو إبرازاً أهميّةً، فلا حذف إلا في غرضه ولا ذكراً إلا في موضعه، ولا يُلجأ إلى الطّلب إلا فيما موطنه وموقعه. فإن سيق الكلام على هذا المجرى كان هذا ما يُعبّر عنه في البلاغة بـ: "مراعاة مقتضى الحال" غير أنّه في بعض الأحوال قد يتطلّب المقام خروجاً عن الأصل وميلاً عن مقتضى الظاهر؛ فيكون المُخاطب في منزلةٍ غير المنزلة التي هو عليها في ظاهر الحال فيُساق له الكلام على هذا الاعتبار وهذا ما يُسمّيه البلاغيون بـ: "الخروج عن مقتضى الظاهر" وهو إخراج الكلام على خلاف ما يقتضيه الظاهر من الحال. وهذا ليس أسلوباً جديداً ولا مُحدثاً بل هو ممّا جرت به ألسنة العرب.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى عرفت من خلال دراستي للسانيات المعاصرة، أنّ التداولية تخصّص معرفيٍّ أو منهج لساني يهتم بدراسة اللغة في سياق استعمالها، فيركّز على الكلام وما يعنيه أثناء التّواصل به وتداوله، فيعالج ما يرتبط بالمتكلم والمتلقّي

والسياق وكل عناصر عملية التّواصل بكيفيةٍ مخصوصة تجعل المعنى معها أكثر دقةً وضبطاً، مقارنةً بأيّ مقارنةٍ أخرى، فتوسّلت بها منهاجاً للتّطبيق على الفكرة البلاغية: "الخروج عن مقتضى الظاهر" لما تحمله من تقاطعات معرفية في كون المعنى لا يظهر في الخطاب مباشرة إلا من خلال دراسته في سياق تداوله ومقام توظيفه ومقاصد منتجه.

فجزّاء طرح الفكرة راودتني تساؤلات متباينة؛ فهل الخروج عن مقتضى الظاهر، عدول عن مقتضى الحال ويحدث انزياحاً عن فكرة مراعاة أحوال المخاطبين وظروف المقام؟ أم أنّها خادمة لها؟ وما البعد التداولي الذي تكشفه هذه الظاهرة؟ وللإجابة على هذه التساؤلات اخترت القرآن الكريم الذي يعدّ أعظم شاهد على لسان العرب وطرائقهم وأسلوب خطابهم، وهذا هو مُنطلق بحثي المعنون بـ: "البعد التداولي للخروج عن مقتضى الظاهر في لغة القرآن الكريم".

وقد اخترت هذا الموضوع لأسباب منها:

### الذاتية:

- الميل إلى دراسة اللغة والبحث في الجانب الاستعمالي الحيوي لها كمادة بحثية خاصة والإقبال والشغف الشخصي على اللغة العربية عموماً.
- الرغبة الملحة في معرفة الجانب البلاغي التداولي للقرآن الكريم والتماس جانب من فصاحته وبلاغته، فرغم توسّع المقامات وأحوال السامعين واختلاف ظروف الحال إلا أنّ القرآن نزل على كلّ سعته، فنزل كل قولٍ منه بمقامه فحقّق الحجة الدامغة إلى يوم الدين.
- انزياح العرب في كلامهم ولسانهم عن ظاهر الحال، وانصرافهم إلى عنه ممّا شكل ظاهرة بلاغية في أسلوب كلامها وتأدية معانيها فعدّ أغراضها.

## الموضوعية:

- إنَّ القرآنَ كلامَ الله وتدبره أمرٌ وواجبٌ، وكذا دراستهالتي تمثِّل جانباً مهماً من جوانب إدراك المعنى والوصول للتفسير الدقيق، والظاهرة المدروسة آية من آليات إنتاج المعنى وتفسيره.

- تعدُّ الإحاطة بهذا العلم باباً واسعاً يفتح أفقاً لفهم القرآن الكريم وإعجازه. وقد اتبعت في العمل منهاجاً هو كالتالي:

اتَّخذت في بحثيالخبرَ والإنشاءمادَّةً للدراسة، واخترت شواهد قرآنية مختاراتٍ كعينة للدراسة، فبعد استخراج الشواهد القرآنية، أحدد الخروج وكيفيته؛ على سبيل الذكر، فقد يخرج الإنشاء في نفسه من صيغة لأخرى فمثلاً يخرج الاستفهام إلى الأمر وقد يخرج الاستفهام أيضاً إلى النهي، كما قد يخرج الخبر خلاف مقتضى الظاهر فينزل خالي الذهن منزلة السائل المتردد أو يُنزل المنكر منزلة غير المنكر فيحدث خروج أو عدول عن مقتضى الظاهر، فبعد تحديده واكتشافه أقوم بتحديد العدول والأثر البلاغي منه ثم ألبأ إن كان الآية غير واضحة السبب إلى سبب النزول والتفسير، ثم أعقب الشرح والتفسير بالجانب البلاغي والبعد التداولي المتضمن فيها بالاستعانة بكتب البلاغيين في هذا الشأن.

ولم يكن لي السبق في هذا البحث فقد سبقني إليه بعض الباحثين حيث توجد بعض البحوث لذات الموضوع على اختلاف عناوينه ومنها:

- **عبد الخالق رشيد** مذكرة لنيل شهادة الدكتوراه بعنوان: العدول عن مقتضى الظاهر في الخطاب القرآني -مقاربة أسلوبية-، جامعة وهران.

- كادي بشير، مبدوبي عبد العزيز مذكرة لنيل شهادة الماستر بعنوان: الخروج عن مقتضى الظاهر في القرآن الكريم وكلام العرب أساليبه وأغراضه، جامعة العقيد أحمد دراية، أدرار.

ومن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في بحثي:

- القرآن الكريم.

- محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم.

- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة.

- فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها.

- عبد الرحمان حسن حنبكة، البلاغة العربية أسلوبها علومها فنونها.

وللإجابة عن إشكالية البحث اعتمدت المنهج التداولي القائم على دراسة اللغة في سياق استعمالها، مرفوقا باليتي الوصف والتحليل.

وقد هندست خطة عملي وفق البناء الآتي:

مقدمة: وتضمنت تمهيد وإشكالية وسبب اختيار البحث، وكذا المنهج المتبع وخطة البحث والصعوبات التي واجهتني.

فصلين: فصل نظري ووسمته ب: بين البلاغة والبعد التداولي؛ يتكون من مبحثين:

الأول: البلاغة والتداولية تضمّن عناوين ثلاث؛ البلاغة مفهومها وعلومها. وكذلك التداولية مفهومها ومبادئها وأيضا صلة التداولية بالبلاغة. والمبحث الثاني المعنون: مطابقة مقتضى الظاهر. مقتضى ظاهر الحال للخروج عن مقتضى الحال الكلام بين الخبر والإنشاء.

وأما الفصل الثاني: فخصّصته للتطبيق ووسمته ب: البعد الاستعمالي للخروج عن مقتضى الظاهر، يضمّ مبحثين قسّمّا كالتالي: المبحث الأول: الخروج في توجيه الخطاب واحتوى على عناصر هي: الخروج في الإنشاء ذاته. خروج الإنشاء إلى الخبر. خروج الخبر إلى الإنشاء.

والمبحث الثاني: الخروج في وضعية الخبر، تتضمن عناصر هي: أولاً وضعية افتراض السؤال. وأيضاً وضعية افتراض الإنكار. وكذلك وضعية افتراض الإدراك.

خاتمة: تضمنت خلاصة لما تطرقت له في العمل والنتائج المتحصل عليها.

وضمن هذه الدراسة واجهتني صعوبات جمّة منها:

- حداثة عهدي بجامعة بسكرة بطريقة عملها ومنهجها وعدم معرفة أسانذتها ودكاترتها الأفاضل.

- محاولة التوفيق بين المهنة والبحث وإن صعوبة ذاتية إلا أن لا مفرّ من ذكرها لكن كانت محفّزاً لي في الآن ذاته.

- صعوبة انتقاء المعلومات بين المهم والأهم، وبين ما هو شائع متداول وما هو جوهريّ في البحث.

لكن بفضل من الله وبمساعدة الأستاذ المشرف " باديس لهويمل " الذي وجّهني ونصّحني نصائح قيّمة، وقدّم لي استشارات طيّبة ساعدتني على استكمال العمل حتى فرغت منه فجزاه الله عني كل خير.

## الفصل الأول:

### البلاغة والبعد التداولي

#### المبحث الأول: البلاغة والتداولية.

- البلاغة مفهومها وعلومها.
- التداولية مفهومها ومبادئها
- صلة التداولية بالبلاغة

#### المبحث الثاني: مطابقة الكلام لمقتضى الحال

- الالتزام بمقتضى الظاهر
- الخروج عن مقتضى الظاهر
- الكلام بين الخبر والإنشاء.

## المبحث الأول : البلاغة والتداولية:

### 1- البلاغة:

#### 1.1 مفهومها:

تعددت تعريفات البلاغة العربية، وذلك لأهميتها الكبيرة في الدراسات اللغوية واتساع مجالها وتنوع أقسامها ومفاهيمها، مما جعلها محط بحث، فقد أولاها الباحثون سواء القدماء أو المحدثون اهتماما كبيرا. ولمحاولة تحديد مفهومها نحدد معنى لفظ البلاغة لغةً: وهو من بلغ يبلِّغ ويُقال بلغ الشيء بلوغا أي: وصل وانتهى، ويقال رجل بليغ اذا كان حسن الكلام وفصيحه، ويبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه فصار بليغاً، والجمع بلغاء، والبلاغة في قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيري، مبلغ الشيء منتهاه<sup>1</sup>، والمبالغة في شيء الانتهاء إلى غايته ويضع الجرجاني في معجم التعريفات البلاغة اصطلاحاً ب: «هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال. والمراد بالحال: الأمر الداعي إلى التكلم على وجه مخصوص مع فصاحته، أي فصاحة الكلام»<sup>2</sup> والبلاغة تكون وصفاً للمتكلم والكلام فيقال: هذا كلامٌ بليغ وهذا متحدثٌ بليغ أما المفردة فشأنها شأن الفصاحة لا البلاغة فيقال في الكلمة أنها فصيحة أي خالية من العيوب مثل تتافر الحروف وغرابة الاستعمال أو مخالفة قواعد اللغة، ويقول أبو هلال العسكري في البلاغة: «البلاغة كل ما تبَّغ به المعنى قلب السامع فتمكَّنه في نفسه كتمكَّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن»<sup>3</sup> ثم عقَّب على ذلك بقوله: «إنَّما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة لأنَّ الكلام إذا كانت عبارته رثَّة ومعرضه خلقا لم يُسمَّ بليغا وإن كان مفهوم

<sup>1</sup> يُنظر، ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 11، ط3، 1994، ص144.

<sup>2</sup> الشريف الجرجاني: معجم التَّعريفات، ت: محمد الصَّدِّيق المنشاوي، دار الفضيلة، د. ط، القاهرة، مصر، 2004، ص34.

<sup>3</sup> أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، تح: مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1419، ص15.

المعنى مكشوف المغزى»<sup>1</sup>، يتّضح في تعريف أبي هلال العسكري البعد التداولي الذي تُحيل إليه دلالة إبلاغ وتمكين المُستمع من الكلام كتمكّنه في المتكلم وهذا من العناية التامة بإيصال الكلام والمعنى كاملاً وهو ما يعنيه بالوضوح والقبول والمعرض الحسن، وهذا ما سيُحلّل أكثر في القادم من العمل. ومن جهة أخرى حدّد الجاحظ والذي يعدُّ من أوائل الذين تطرّقوا إلى مفهوم البلاغة من خلال كتابه: "البيان والتبيين" الذي أورد فيه مفهوم البلاغة: خبرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسان، وحدّثني محمد بن أبان قال: قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل. قيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. قيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حُسن الاقتضاب عند البداهة، الغزارة يوم الإطالة. وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وُضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.<sup>2</sup> وكلّ ما ورد سابقاً يضمّ جوهر من جواهر البلاغة فهي مما توفر في الكلام من فن الكلام وبراعة اختيار الألفاظ وكذلك البداهة والإيجاز، ومما يتوفر فيها من الوضوح فتبعد كل البعد عن الكراهة والغرابية بل هذا مما يُعيب الكلام، كذلك يكون فيها ما يكون من حسن العبارة ودقة التصوير وحضور الفرصة والتقاط انتباه المخاطبين والتأثير فيهم، وهذا مما عبّر عنه في قوله عن بعض أهل الهند: «البلاغة البصُر بالحُجّة والمعرفة بمواضع الفرصة».<sup>3</sup>

وأكثر الأقوال جمعا لأهم ما فات، قال الجاحظ: «البلاغة التماس حُسن الموقع، والمعرفة بساعات القول، وقلة القول بما التبس من المعاني أو غمُض، وبما شرّد عليك من المعاني أو تعذّر».<sup>4</sup>

1 أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص 19.

2 يُنظر، عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تعبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الجزء الأول، ط 7، القاهرة، 1998، ص 88.

3 عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، ص 88.

4 نفسه، ص 88.

مما سبق، أخلص إلانّ مفهوم البلاغة في مفهومها العام معرفة الوصل والفصل عند الكلام، فيدري المتكلم متى وأين وكيف يتلفظ بكلام دون سواه، وكيف يعمد إلى أسلوب دون غيره، ومتى يطول الكلام ومتى يختصر ويقصر، ويجب أن تكون الدلالة واضحة فإن علا الكلام غموض أو لم يستصغره المتكلم لعدم هضمه وتقبّله له أو لمخالفة المقام أو المخاطب فيخرج الكلام عن كونه بلاغيا. من جهة أخرى يرى القزويني أنّ بلاغة الكلام: «مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته».<sup>1</sup> وفي موضع آخر ذكر: «البلاغة صفة راجعة إلى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التّركيب».<sup>2</sup>

ومن هنا فإنّ البلاغة تقوم على أربع:

- اختيار لفظة جزلة فصيحة، ومعنى.
- حسن تركيب الكلام وصحّته.
- اختيار أسلوب يصحّ على المخاطبين ومناسبا لهم.
- التأثير أو ما سمّاه بالإفادة.

وأما السكاكي فيعرفها بأنّها: «بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفية خواص التّراكيب حقّها»<sup>3</sup> والحال هو الدّاعي لإيراد الكلام على وجه مخصوص، إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما، وهي مقتضى الحال، مثلا إنكار المخاطب للحكم حالا يقتضي تأكيده، فالتأكيد مقتضى لهذا الحال ولازم له حالا كهذا، وعلى خلاف ذلك إن اقتضى الكلام ابتداء جرى الكلام عاريا من التأكيد. ومنه ما

1 الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تح محمد عبد المنعم خفاجي، الجزء 1، ط3، المكتبة الأزهرية للتراث، 1993، ص41

2 الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص42

3السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ط2، 2011، ص526.

يقتضي ذكر أو حذف المسند أو المسند إليه، أو تقديم أحدهما أو تأخيرهما حسب ذلك كله سأحدّد مفهومه بشكل أكثر تفصيلاً في قادم البحث.

فالمجمل أنّ مقتضى الحال هو الكلام الكليّ المشتمل على الخصوصية، ومطابقة الكلام لذلك المقتضى كونه الكلام الجزئيّ الصادر من المتكلم الملقى للمخاطب المشتمل على خصوصية الأفراد، ذلك فالحال هو الأمر الداعي مطلقاً، أمّا ظاهر الحال فهو الأمر الداعي في نفس الأمر.

## 1.2- علوم البلاغة :

تقسم البلاغة إلى أقسامٍ ثلاث: البديع، البيان والمعاني؛ فالبديع هو العلم الذي تعرف به وجوه تحسين الكلام من محسنات لفظية أو معنوية، وأمّا البيان فيقصد به العلم الذي يختصّ بالطرق المختلفة لعرض المعنى الواحد بأوجه مختلفة، وذلك مع إيراد دلالة عليه، ومنها: الاستعارة، والمجاز، والكناية. رغم أنّ مصطلح "البيان" استقرت عليه علوم البلاغة وأقرّت به، إلاّ أن العلماء القدماء كانوا يطلقون البيان على البلاغة نفسها، بل وحتى على التعبير اللغوي الفصيح عموماً، حتى تداولت بينهم مقولة لا تزال تتردّد إلى اليوم: «إنّ من الشعر لحكمة وإنّ من البيان لسحرا».

وثالثاً يأتي علم المعاني الذي يُطلق الجانب البلاغي الذي تتناول أحوال الكلام والمعاني والأغراض المقصودة به، وممّا يُعنى به: الإيجاز والإطناب والإنشاء والخبر والوصل والفصل، إلى غير ذلك. وهو ما يصبّ حوله هذا الإنجاز.

## 3.1- علم المعاني:

إنّ علم المعاني هو: «أصولٌ وقواعد يُعرف بها كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال أيّ المقام وهو الأمر الداعي لمراد خصوصية الكلام وتلك الخصوصية هي مقتضى

الحال»<sup>1</sup> وعرفه الخطيب بأنه: «علم يُعرف به أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال»<sup>2</sup> كذلك يُعرفه السكاكي أنه: «تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة، وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره، وأعني بتراكيب الكلام التراكيب الصادرة عن له فضل تمييز ومعرفة، وهي تراكيب البلغاء لا الصادرة عن سواهم»<sup>3</sup>. والمقصد بخاصية التركيب ما يسبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب وأما ما عني من تراكيب البلغاء بلا شك مما قصد ببليغ أي شخص على عناية بالبلاغة كما ذكر سابقا من تعريف السكاكي بأن البلاغة هي بلوغ المتكلم في تأدية المعنى حداً له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها. فالمقصود بالفهم فهم ذي الفطرة السليمة، المُطَّلَع على التراكيب وكلام العرب الذي يملك القدرة على التمييز والتّحصيل، ولا شك أنّ معرفة البليغ من حيث هو متوقفة على معرفة البلاغة. إذنومنه؛ فعلم المعاني حسب الاحتراز من الخطأ في تأدية المعنى المراد وإلى تمييز الفصيح من غيره. ويقوم تعريف السكاكي على أمرين:

✓ تراكيب الكلام من حيث سلامتها وصحتها.

✓ مقتضى الحال مما يقتضي المناسبة والمقام سأتي على ذكره والتفصيل فيه فيما هو آتي.

إذن فهو ائتلاف الألفاظ ووضعها في الجملة الموضع الذي يفرضه معناه النحوي. وقال في موضع آخر: واعلم أنّ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضي..  
يُعنى علم المعاني بثماني أبواب هي<sup>4</sup>:

❖ أحوال الإسناد الخبري.

1 أحمد حملاوي: زهرة الربيع في المعاني والبيان والبدیع، المكتبة التوقيفية، د.ط، القاهرة، ص9

2 الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص52.

3محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ت نعيم زرزور، دار كتب المعرفة، ط2، بيروت، لبنان، 1987، ص121

4الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص55.

- ❖ أحوال المسند إليه.
- ❖ أحوال المسند.
- ❖ أحوال متعلقات الفعل.
- ❖ القصر.
- ❖ الإنشاء.
- ❖ الفصل والوصل.
- ❖ الإيجاز والإطناب والمساواة.

## 2\_التداولية:

### 1.2 مفهومها:

أ - لغة: معنى لفظ التداولية من حيث المصطلح الغربي (Pragmatique) يعود أصله إلى الكلمة اللاتينية (Pragmaticus) التي تتكون من الجذر (Pragma) والذي يعني الفعل (Action) فصارت تعني كل ما له علاقة بالفعل والتحقق العملي في الواقع<sup>1</sup>. تعددت التسميات والترجمات التي أطلقها الباحثون العرب على مفهوم مصطلح (Pragmatique) فقيل: البراغماتية، البراغماتيك، البراجماتية وليس هناك تباين كبير بينها كونها ترجمة ونقلًا حرفيًا عن المصطلح الأجنبي وقيل: التداولية، المقامية والسياقية والنفعية.. لكن المصطلح الذي بقي متداولًا وحظي بحظ أكبر من غيره كان مصطلح "التداولية" الذي استخدمه أحمد المتوكل<sup>2</sup>. وقد حدّد بيرس البراغماتية بما أصبح يُعرف بمسئمة البراغماتية التي تمكّن في اتجاهها العملي، حيث يميّز بين البراغماتية والبراغماتية التداولية حيث إنّ الأولى تُحيل إلى الفلسفة والأخرى تُحيل إلى اللغة، فهذه الأخيرة تُحيل إلى الجانب الفعلي

1: ينظر، نواري سعودي: في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ وإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر الطبعة

الأولى، سنة 2009م، ص 18.

2: مصطفى حركات: الصّوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، د.ط، الجزائر ص 80.

للغة أي لا تُعنى بالشكل والتركيب ولا الجانب الدلالي إنّما الجانب الخاص بالاستعمال والتداول.

أما في معاجم العرب فلفظ تداولية من الجذر: "دول" يُقال: تداولنا الأمر أي أخذناه بالدول، وقالوا دواليك أي مداولة على الأمر، ويُقال دالت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس، وتداولته الأيدي أي أخذته هذه مرّة وهذه مرّة، وتداولنا العمل والأمر بيننا بمعنى تعاورناه فعمل هذا مرة وهذا مرة.<sup>1</sup>

ب - اصطلاحاً: بدأ مصطلح التداولية في الثقافة الغربية مع الفيلسوف الأمريكي «تشارلز بيرس» (Ch. S. Peirse) إثر نشره لنصّين في المجلة الفرنسية "ميتافيزيقيا" سنة 1978 و1979<sup>2</sup>، أمّا من حيث الاستعمال فكان أول من استعمل هذا المصطلح هو «تشارلز موريس» (Mouris Charles) حيث حدّد مفهوم التداولية في السياق العام لعلم العلامات فقال: «التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقات بين العلامات ومستعملي هذه العلامات»<sup>3</sup>، فالتداولية تقتصر على دراسة ضمائر التكلم والخطاب وظرفي الزمان والمكان والتعابير التي تستقي دلالتها من معطيات تكون جزئي خارج اللغة نفسها، أي المقام الذي يجري فيه التّواصل<sup>4</sup>. من جهة أخرى يعرفها الجليلي دلاش بقوله: «تخصّ لساني يدرس كيفية استخدام النّاس للأدلة اللّغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم كما يعني من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث»<sup>5</sup> وأضاف قائلاً: «يمكننا القول كذلك بأنّ اللّسانيات التداولية إنّما هي لسانيات الحوار أو الملكة

1: يُنظر، ابن منظور: لسان العرب، المجلد 11، ط3، 1994، ص252-253.

2 يُنظر، الزواوي بغورة: العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد3، المجلد35، 2007، ص99.

3: فرانسوار أرمينيكو: المقاربة التداولية، تح: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986، ص12.

4: آن روبول-جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التّواصل، تر: سيف الدين دغفوس- محمد الشّيباني، المنظمة العربية للترجمة، ط1، 2003، ص29.

5 مدخل إلى اللّسانيات التداولية: تحقيق محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، 1992، ص1.

التبليغيّة»<sup>1</sup> وفي أيسر مفهوم يمكننا تحديد التداولية بأنّها دراسة اللغة في سياق الاستعمال والتخاطب، تقوم على مراعاة كلّ ما يُحيط بعملية التخاطب، للوصول إلى المعنى وبلوغ القصد منه.

## 2.2 مبادئها:

كأيّ علم أنشأ له مفاهيم ومعايير وتنظيرات يقوم عليها، ومما قامت عليه مبادئ ومفاهيم منها أفعال القول والاستلزام التخاطبي والإشارات وغيره من المفاهيم، لكن سأقف على ما يخدم البحث ألا وهو مفهوم الجمل الخبر والإنشاء و كذلك البلاغة من مفهوم التداولية، فقد أورد أوستن ملاحظات حول الجمل فحسبه يرى أنّ كثيرا من الجمل ليست استفهامية أو تعجبية أو أمرية لا تصفُ مع ذلك أي شيء ولا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق والكذب، وعبر عن ذلك قائلا: «وبالفعل، لا تستعمل هذه الجمل لوصف الواقع بل لتغييره، فهي لا تقول شيئا عن حالة لكون الراهنة أو السابقة، إنّما تغيّرها أو تسعى لتغييرها»<sup>2</sup> فعلى سبيل المثال قول القائل: (كفّ عن الكلام) فهنا لا نصف بهذا الكلام حالا راهنا إنّما نغيّر الواقع من حال الكلام والفوضى إلى الصّمت والهدوء وهذا النوع من الجمل ما سمّاه الجمل الإنشائية ويحكم على الجمل الإنشائية لا من معيار الصدق والكذب بل من معيار التوفيق والإخفاق<sup>3</sup>. ومنه أدرك أوستن أنّه من ضمن الجمل أيضا جملا تجيز الوصف وتحتل معيار الصدق والكذب وهو ما أطلق عليه الجمل الوصفية أي: ما يُقابل في بلاغتنا العربية الجمل الخبرية.

## 3 - صلة التداولية بالبلاغة:

1 نفسه، ص 1.

2 أن روبول-جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التّواصل، ص 30.

3 يُنظر، نفسه، ص 31.

إنَّ الرّابطة بين التّداولية والبلاغة هو كونهما علمين يدرسان اللغة من جانبها الاستعمالي التّفاعلي أي ما اتّصل بوظيفة اللغة الأساسية كما حدّدها ابن جنّي أصوات يُعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم، أي ما صاغها المتكلم ليعبّر عن حاجته أو يراها علماء اللّسانيات أداة تواصل وتبليغ، بل وطالما ما كانت هذه وظيفة اللّغة بكونها مادّة تواصلية يتم تبادلها بين طرفين يكون أحدهما منتجا الخطاب والآخر مستقبلا له، فالخطاب لا يُنشأ دون مستمع وإن لم يُعلم له متلقٍ فينشأ بافتراض متلقٍ مستمع مجهول. إذن فكلّ من البلاغة والتّداولية يشتركان في عدّ اللغة أداة تفاعل تتمّ بين طرفين ضمن سياق معين لغرض التّبليغ أو تحقيق قصد معين. وانطلاقا من هذا المفهوم هناك من المحدثين من جمع بين المفهومين وجعلهما معنّى واحدا إذ يقول «جيفري ليتش» (J. Leitch) عن البلاغة أنّها: «تداوليّة في صميمها، إذ إنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلم والمستمع بحيث يحلّان إشكالية علاقتهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضهما»<sup>1</sup> فكلاهما يهتمّ بعملية التّلّفظ والعوامل المتحكّمة فيها قبل الكلام، وأثناء التّلّفظ بالخطاب، وحتّى إنجازها وهذا نقطة الوصل بين البلاغة والتّداولية<sup>2</sup>، فالبلاغة تتجاوز فكرة البنية وتجاوز حدود الجملة والتّركيب التي تعزل اللفظ عن المعنى، إذن اهتمّ العلماء بأثر المعنى ضمن السياق فكان هذا المنعطف أي منظور اللغة في سياق التّواصل والتّفاعل كبد التداولية وجوهرها ممّا سبق نجد يعرض النّقاط أن كلاهما<sup>3</sup>:

- دراسة اللغة بالرّبط بين البنية والوظيفة.

- كلاهما يدرس اللغة في منظورها التّفاعلي بوصفها وسيلة تواصل قصد التعبير والإعراب عن الأغراض.

1 أفضل عباس: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، د.ط، د.ت، ص 89.

2 باديس لهويل: التّداولية والبلاغة العربية، مجلة المخبر، العدد 7، 2011، ص 165.

3 يُنظر، باديس لهويل: التّداولية والبلاغة العربية، ص 170

- اعتماد مبدأ لكل مقام مقال.

- الاهتمام بعناصر الخطاب: المتكلم وقصده، المُخاطب وأحواله، الخطاب ونوعه والظروف المحيطة به.

- دراسة الأساليب والأغراض وانتقالها من الدلالة الحقيقة إلى دلالات أخرى يقتضيها أو يستدعيها المقام وظروفه وخصوصيتها، واللغة العربية خاصة تباينت بين مجموع أساليب وصيغ وأنواع يعتمدها المتحدث إن بغى مفهوماً معيناً ضمن كلامه ومنها: الإخبار، التقرير، التمني، والطلب وغيره. فتعدّ اللغة لفظاً مخصوصاً مُنتجاً عن متحدثٍ لمتلقٍ محدّد بلفظٍ متّزن في سياق تواصلٍ وظروفٍ معيّنة.

ومنه بالوصل بين مفهومي البلاغة والتداولية أي دراسة اللغة من منظور تواصلٍ استعمالٍ - كما سبق القول - تتجلى بها معاني السياقات والتراكيفي النص أو الخطاب المدروس، وتزداد أهمية هذا النشاط وتشرف مكانته إذا ما اتّجه إلى النص القرآني الكريم، إذ هو ضروري لمن ابتغى فهم معاني القرآن واستنباط أحكامه، وبلوغ مقاصده ومعانيه، وإدراك أوامره ونواهيه لأنّ المعنى لا يستشّف من الخطاب إلاّ بأمرين أولاً الجانب التركيبي للجمل الذي يُعلم منه هيئة الكلمة في التركيب ومحلّها في الجملة وفي هذا المعنى قال الزركشي: «وعلة الناظر في كتاب الله الكاشف عن أسراره النّظر في هيئة الكلمة وصيغتها ومحلها ككونها مبتدأ أو خبر أو فاعل أو مفعول أو في مبادئ الكلام أو في جواب، إلى غير ذلك»<sup>1</sup>. وكذا الجانب التفاعلي منه الذي يُعنى بخصائص المستمع المخاطب وخاصية المقام الذي قيل فيه كما في القرآن فيم وفي من نزل. فإنّ القرآن الكريم بعدّه خطاباً موجّهاً للنّاس كافة في كلّ زمان ومكان، وفي أيّ الأحوال والصفّات، نزل به

1 محمد بن عبد الله بن حمد السيف: الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن الكريم، دار التدمرية، المجلد الأول، الرياض، السعودية، ط1، 2008، ص73.

شيء من العجب والبراعة والإعجاز لاحتوائه وإحاطته بكل تلك الظروف والأحوال، وهو ما يُحيلنا للفظ المُبادلة التفاعلية كونها وجها للتداولية؛ فالتداولية تحمل مفهومين رئيسيين هما الاستعمال والتفاعل كون التفاعل هو ما يحمل معنى التداول والتناقل فالخطاب بالضرورة يتداولها بين طرفين، أمّا مفهوم الاستعمال فهو المعنى المحدد في سياق ما يحدده ذلك التفاعل. فالتفاعل أهم شروط المبادلة القرآنية لأنّه خطاب هداية وإرشاد ولا يتحقّق المرجو من هذه الدعوة دون تحقيق هذا التفاعل بين المخاطب والمتلقي سواءً إلزاماً وتحذيراً وهُنَا تكون التداولية فوصل الخطاب القرآني بالتداولية ألبسه لباس التفاعل ولوّنه بشئى ومُختلف الأساليب مراعاة لمقتضى الحال.

## المبحث الثاني: مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

### 1. الالتزام بمقتضى الظاهر:

إنّ الكلام لا يُنظم ولا يُلفظ إلا ضمن شروط معيّنة وفي ظل جملة من العوامل اللغوية وغير اللغوية، فاللغوية تكون كمعرفة أصول اللّغة وطرق نظمها، وغير اللغوية كمراعاة أحوال السّامعين وملابسات المقام وظروفه، فالتكلم إذا ليس مجرد تركيب جملة وإنّما هو اختيار لجملة تطابق المقام بين مجموع الجمل المتوفرة في اللّغة. كما لخصّها العرب في: «لكلّ مقام مقال» هذه المقولة التي لا تزال إلى الآن تعبّر عن معنى هام في البحث البلاغي، حتى أنّه - كما أوردت سابقاً- البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الظاهر.

أمّا الحال فقد سبق ذكره في الحديث عن البلاغة أنّ: الحال هو الدّاعي لإيراد الكلام على وجه مخصوص، إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية ما، وهي مقتضى الحال، فهذا الأخير مصطلح يستعمله البلاغيون ليدلّوا به على مناسبة الموقف الذي قيل فيه الكلام، فهو مفهوم شديد الالتصاق بمفهوم المقام وإن كان بعض البلاغيين يعدّونه مرادفاً له، فالحال كما يُعرّفه أهل البلاغة أنّه الأمر الدّاعي

للمتكلم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، وهذه الأخيرة هي الحال. فعلى سبيل المثال إنكار المخاطب لحكم ما أمر داع للمتكلم إلى أن يُقحم في كلامه إشارة مخصوصة توافق ما في نفس المخاطب، ففي هذه الحالة أن يُضمن كلامه أداة توكيد أو أكثر بحسب درجة الإنكار في نفس المخاطب، فإيراد الكلام هنا مؤكداً هو إجراء على مقتضى الحال، وفي سياق ذكر الخبر والتوكيد أُورد فضل حسن عباس في كتابه البلاغة فنونها: «إذا أوردنا الخبر لخالي الذهن مجرداً من المؤكّدات استحساناً، وللمنكر مقروناً بالمؤكّدات حسب درجة إنكاره وجوباً بلاغياً، كان إيرادنا للخبر جارياً على مقتضى الظاهر، وهذا يُسمّى خُروجاً عن مقتضى الظاهر»<sup>1</sup>.

فالحال مصطلح بلاغي له بعد سيكولوجي، متعلق بالهيئة والصفة التي يكون عليها المخاطب والمُخاطَب وطبيعة الخطاب، والتي يفترضها المخاطب في الخطاب لحظة صياغته للإنتاج والتي تُوجب عليه أن يُراعيها ويحتكم لها، يقول بعض البلاغيين عن هذه الفكرة: فقد سُمي الأمر الداعي للقول كالإنكار بالحال لأنه ممّا يتغيّر ويتبدّل كالحال الذي عليه الإنسان من غضب ورضى، ولأنه صفة وحال من أحوال الإنسان<sup>2</sup>. فالحال هيئة طارئة تتعلّق بلحظة إنتاج الخطاب يتوجّب مراعاتها في لحظتها تلك، خلافاً للمقام ذي الصفة الدائمة نسبياً في البلاغة العربية لأنه متصلّ اتصالاً وثيقاً بالأحوال الاجتماعية والثقافية عموماً من لغة ودين وطبيعة. لذلك كانت مقامات الكلام متباينة متفاوتة بحسب التفاوت الثقافي والاجتماعي والطبقي وغيره.

انطلاقاً من هذا المنظور، يظهر جلياً أنّ الحال جزء من المقام لا مرادف له في البلاغة العربية، فالحال أخصّ والمقام أعمّ؛ لأنه متشكّل منه متضمّن فيه. فهو أمر

1 عبد الرحمن حسن حنكة المدني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، الجزء الأول، دار القلم، ط1، بيروت، 1996، ص182.

2 ينظر، عبد الخالق رشيد: العدول عن مقتضى الظاهر في الخطاب القرآني (مقاربة أسلوبية)، مذكرة لنيل شهادة دكتوراه، جامعة وهران، 2007، ص 04

مخصوص وحادث طارئ داخل ظرف عام. وأياً يكن، فالثابت أنّ المقصود بمقتضى الحال هو نظم الكلام على هيئة مخصوصة تطابق مقتضيات المقام، وهذه المطابقة تكون حسب ما يُمليه ظاهر الحال.

من جهة أخرى، قد تقتضي المطابقة العدول عن الظاهر والإتيان بالكلام على خلافه ويكون ذلك حينما يكون الأمر الداعي لصوغ الكلام على هذا المنحى مفترضا لدى المتكلم، كتنزيل المخاطب غير السائل منزلة السائل، فيؤكّد له الكلام رغم عدم ظهور علامات الإنكار عليه أو لحصول مناسبة بلاغية يقتضيها سياق الخطاب -وهو ما



سأستقيض فيه ما يأتي من البحث-. فالخلاصة أنّ مطابقة الكلام لمقتضى الحال تتمّ بالالتزام بمقتضى الظاهر كما يتمّ كذلك بالعدول عن مقتضى الظاهر؛ إذا فكلاهما خاضع له متضمن فيه أي في مقتضى الحال يمكننا تلخيص ذلك فيما يأتي:

فمطابقة الكلام لمقتضى الحال تكون بأن يلتزم بمقتضى ظاهر الحال وكذلك بإخراج الكلام خلاف مقتضى الظاهر، بالتالي هما وجهان لفكرة واحدة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فإما أن يلتزم بالمعيار فيكون مطابقة لمقتضى الظاهر أو يكون خلافا للمعيار ويكون خروجاً عن مقتضى الظاهر، فقد ذكر فضل حسن عباس في كتابه عن مفهوم الخروج عن مقتضى الظاهر: «تقتضي حالة المخاطب الخفية غير الظاهرة تأكيد الخبر له، مع أنّ توجيه الخبر له كان بصورة ابتدائية لا تستدعي بحسب الظاهر تأكيد

الخبر له، فحين نؤكد له الخبر ملاحظين حالته الخفية فإننا نوجه له الخبر مؤكداً على خلاف مقتضى الظاهر وهذا يسمى "إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر"<sup>1</sup>.

## 2- الخروج عن مقتضى الظاهر:

تعددت المصطلحات الدالة على مفهوم الخروج في البلاغة وغيرها من علوم اللغة، ففي المفهوم اللغوي الخروج نقيض الدخول، هو العدول وفيه معنى المخالفة. فكان الخروج بمعنى العدول، ومن المصطلحات التي تداولها البلاغيون كان: الانزياح، الانتهاك، اللحن، التحريف، الانحراف، وغيرها وقد كان الانزياح أكثرها تداولاً في البحث البلاغي.

### 1.2 مفهوم العدول عن مقتضى الظاهر:

في اللغة: عدل يعدل عدلاً بمعنى حاد، ويُقال: عدل إليه عدولاً أي رجع وهو رجوع بعد انحراف. والعدول هو الميل والانحراف.<sup>2</sup>

وذكر الجرجاني: العدل عبارة عن الأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط وفي اصطلاح التحويين: خروج الاسم عن صيغته الأصلية إلى صيغة أخرى، وقيل العدل مصدر بمعنى العدالة وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق.<sup>3</sup>

وهذا المفهوم هو ما يعنيه العدول في البلاغة؛ هو الخروج عن معيارها ليحقق الاعتدال في إنتاج الكلام خطاباً واستقبال السامع له.

أما من حيث الاصطلاح البلاغي، فقد ذكر السكاكي في مفتاح العلوم في حديثه عن علم المعاني وقد أورد ضرب الخبر الابتدائي والطلبى والإنكاري، فأردف قائلاً: «

<sup>1</sup> عبد الرحمان حسن حنيكة المدني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص 182.

<sup>2</sup> يُنظر، ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 11، ط 3، 1994، ص 434.

<sup>3</sup> الجرجاني: معجم التعريفات، ص 124.

وإخراج الكلام عن هذه الأحوال يُسمى إخراجاً عن مقتضى الظاهر»<sup>1</sup>. وأورد مثلاً استشفه من جواب أبي العباس للكندي حين سأله قائلاً: إني أجد في كلام العرب حشواً يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إنَّ عبد الله قائم، ثم يقولون: إنَّ عبد الله لقائم، والمعنى واحد، وذلك أن قال: بل المعاني مختلفة، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إنَّ عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إنَّ عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه.<sup>2</sup>

رغم تعدد تعاريف الخروج عن مقتضى الظاهر في كتب البلاغة إلا أن كلها تصبُّ في مفهوم واحد، أن الخروج بمعنى العدول عن وجه الحقيقة وظاهر الكلام، واتخاذ طرق مخالفة له، من أجل التوسع في أضرب الكلام وأغراضه البلاغية. فالخروج يأتي ليوضح ما أراد المتكلم إبرازه من معنى للمخاطب، فعندما يخرج المتكلم عما هو أصل أو ما قيس عليه من العربية، فيحدث التغيير أثراً في السامع، سواءً كان تغييراً في الألفاظ أو التراكيب فكلاهما خادمٌ للمعاني مُحدث له. فمن المفاهيم الواردة عند البلاغيين عن مقتضى الظاهر هو الاعتبار الذي يُوجب مجيء الكلام على صفة معينة مناسبة للحال وظروف المقام كالتأكيد في حال الإنكار أو التردد على سبيل المثال ومنه ما يخرج من العدول عن الخبر إلى الإنشاء أو العكس، وستبين الدواعي لهذا العدول والمعنى المراد تحقيقه منه في القادم من تحليل الخطاب القرآني.

نستخلص من كل ما سبق، أن المعاني دائماً ما تكون في تركيب واضح مباشر، سلس، يستشفُّ القصد منها ويُعرف مضمونها من ظاهر الكلام لكن أحياناً لسبب أو لآخر يعدل المتحدث عن هذا الطريق ليصوغ معانيها في قالبٍ مختلف فيستقبلها المتلقي في تلك الصفة غير المعهودة وهذا ما يُسمى: "خروجاً عن مقتضى الظاهر".

1محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، ص171.

2 نفسه، محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، ص171.

## 2.2 مستويات الخروج عن مقتضى الظاهر:

إنّ مطابقة الكلام لمقتضى الحال، إذ تنقسم لوضعيتين - كما كان التّصوّر في المخطط السابق - هما: إخراج الكلام على ما يقتضيه ظاهر الحال، كاعتماد الخبر بأضره المتنوّعة في مقام الإخبار بوضعيات مختلفة: إدراك الخبر، التردّد، الإنكار، أو الإنشاء باعتماد أساليبه المتعدّدة في مقامات الطّلب المتباينة حسب المقام. ووضعيّة ثانية بإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر من الحال، الذي يضمّ أساليب تخالف معيار ما يقتضيه الحال؛ كتزليل الباطن الخفيّ مقام الظاهر الواضح وهذا فيما يدخل في المقام من غرض لفت انتباه المخاطب أو حثّه على الانتباه إلى مقصد العدول. ومثال ذلك:

1. قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾.<sup>1</sup> فذكر اللفظ الجليل {الله} وهو في مقام الإضمار؛ لأنّ الأصل في الكلام و المحدث به أن يردّ ظاهراً فإذا ذكر ثانياً أن يُذكر مضمراً للاستغناء عنه بما ذكر سابقاً ولجمالية الكلام موجزاً بعيداً عن الإطناب. ففي الآية الكريمة ذكر: {ومنالناسميتخذمندوناللاهأندادا} ثم عند إعادة ذكر لفظ الجلالة ثانياً لم يقل: {يحبونه كحبه}، إنّما ورد ظاهراً وكان في مقام الإضمار وذلك لتربية المهابة، وبيان عظيم ما فعلوه وقبح ما ارتكبوا. وأيضاً في قوله: {ولو يرى الذين ظلموا} فهو إظهار في مقام إضمار بالمعنى، فالذين أظلموا هم الذين اتّخذوا من دون الله أنداد، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.<sup>2</sup> فالخروج عن مقتضى الظاهر له صورٌ عدّة منها: حسب صيغ الفعل فيكون الخروج من صيغة الماضي إلى المضارع

1 سورة البقرة: الآية 165.

2 سورة التوبة: الآية 23.

أومن صيغة المضارع إلى الماضي. ومن العُدول أيضا في الضمائر فيعدل من الخطاب إلى الغيبة أو عكس ذلك أو من المتكلم إلى الغيبة أو كذلك من الغيبة إلى التكلّم. واتخذت في هذا العمل من الخروج ما استند إلى الخبر والإنشاء أو الانزياح من الخبر إلى الإنشاء أو خلاف ذلك فيكون الخروج من الإنشاء إلى الخبر وسيُتضح ذلك في القادم من العمل.

### 3 - الكلام بين الخبر والإنشاء:

إن الكلام على اختلاف أغراضه ومناسباته ومعانيه واختلاف الآراء حوله ينقسم من حيث الأسلوب إلى اثنين هما: الخبر والإنشاء، لأنّه إمّا أن يكون لنسبته خارج تطابقه، أو لا تطابقه؛ والقصد أنّ الكلام يشتمل على نسبه بين طرفيه "المسند والمسند إليه" وتعلّق أحدهما بالآخر أي النسبة الحكمية، حيث يصحّ السكوت بالتعلّق سواء كان بالسلب أو بالإيجاب فالإيجاب هو إدراك الثبوت أي مطابق للواقع أو لا يطابق و السلب عكس ذلك ويكون الحكم في ذلك وهذا لا يكون إلّا في الخبر، بخلاف الإنشاء فهو لا يتصف بإيجاب أو بسلب لأنّهما من الحكم والإنشاء ليس بحكم.

#### 1- الخبر:

الخبر في اللّغة من خبر وأخبر أي: أنبا وأبان عن حقيقة أو أمر ما، ويعرّفه الجرجاني في معجم التّعريفات بأنّه: لفظ مجرّد من العوامل اللّفظية مسند إلى ما تقدّمه لفظا نحو: (زيد قائم) أو تقديرا (قائم زيد). وقيل الخبر: ما صحّ السكوت عليه. فالخبر هو الكلام المحتمل للصدق والكذب.<sup>1</sup> وقد اختلف في حصر الخبر في فكرة الصادق والكاذب، منهم من حصه فيهما ومنهم ما طرح الآتي:

قال البعض: صدقه مطابقة حكمه للواقع، وهذا المشهور وعليه التعويل.

<sup>1</sup> الجرجاني: معجم التّعريفات، تحقيق محمد الصديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، مصر، د. ط، 2004، ص 84.

وقال آخرون: صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر صوابا كان أو خطأ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له. واحتج له بوجهين: أحدهما من اعتقد أمرا فأخبر به فظهر الخبر بخلاف الواقع فلا يُقال أنه كذب إنما أخطأ، كما روي عن عائشة رضي الله عنها في مثل من شأنه كذلك قالت: ما كذب ولكنه وهم.<sup>1</sup>

ومثال ذلك: قوله تعالى: { وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ } وقصد بكذبهم في قولهم: {إِنَّكَ لَسَوَّلُ اللَّهِ} وإن كان قولهم مطابقا للواقع لأنهم لم يعتقدوه وأُجيب عنهم بوجوده فقد حمل قولهم على كونه مقرونا بأنه قول من صميم القلب.

من جهة أخرى أنكر الجاحظ انحصار الخبر في قسمين وزعم أنهم ثلاثة أقسام:<sup>2</sup> صادق وكاذب، وغير صادق وغير كاذب، لأنَّ الحكم إمَّا مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه، أو غير مطابق مع الاعتقاد أو عدمه، تأتي كالتالي:

- الأول: أي المطابق مع الاعتقاد (هو الصادق).
- الثالث: أي غير المطابق مع الاعتقاد (هو الكاذب).
- الثاني والرابع: أي المطابق مع عدم الاعتقاد، وغير المطابق مع عدم الاعتقاد (وكلاهما ليس بصادق أو كاذب).

يُصاغ الكلام الخبري فوق مقتضى الحال؛ فلأن حال في الخطاب الخبري أن يقصد ثلاثة حالات حسب درجة الإحاطة والإدراك وهي: المنكر، والمتردد، وخالي الذهن، وينبغي أن يختلف عن صاحبه عند مخاطبته. ولكن ولا اعتبارات ترتبط بالمقام وخصوصية المتلقي ومرض ما ينبغي المتلقي تحقيقه يُخرج الكلام عن مقتضى الظاهر ليكون للخبر اعتبارات أخرى وفي هذا الموقنمميز بعض الحالات:

1 الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، ص 60.

2 نفسه، ص 61.

- أن ينزل غير السائل منزلة السائل، فيستحسن تأكيد الكلام له.
- أن ينزل غير المنكر منزلة المنكر، فيؤكد له الكلام بأكثر من تأكيد.
- أن ينزل المنكر منزلة غير المنكر، فلا يؤكد له الكلام.

## 2- الإنشاء:

مفهومه في اللغة: هو الابتداء والابتداع، فكلُّ من ابتدأ شيئاً فقط أنشأ وابتكر<sup>1</sup>.

في الاصطلاح: عرّفه البلاغيون بأنّه: كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته؛ فهو كلام يُطلق لا ليبيّن حقيقة يؤكدها أو ينفيها، لذلك فهو لا يحتمل الصدق والكذب، لأنّ ذلك ما تُعنى به الحقائق والوقائع. والإنشاء نوعان: طلبي وغير طلبي<sup>2</sup>.

فالإنشاء الطلبي: ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب؛ فهو يطلب حصوله، فعند قول القائل: اكتب الدرس فإن القائل يستدعي حصول شيء غير حاصل عند تلفّظه بذلك، ما ألا وهو فعل الكتابة وصيغته أو أساليبه: الأمر والنهي والاستفهام والتّمني والتّداء. والإنشاء غير الطلبي: هو عكس سابقه، فهو ما لا يستدعي مطلوباً، تعدّدت صيغته فمنها: التّعجب، المدح والذّم، القسم، الرّجاء وغير ذلك.

يرى بعض علماء البلاغة أن الإنشاء غير الطلبي من الضّروري تصنيفه ضمن أسلوب الخبر، واستدلّوا على ذلك حُجّة بقصة الإعرابيّ الذي رُزق بأنثى، فقيل له: (نِعْمَتِ المولودة)، فقال: (والله، ما هي بنِعْمَتِ المولودة)؛ فقد فهم هذا الإعرابيّ من القول: (نِعْمَتِ المولودة) أنه خبر، فكان ردّه أن كذّبه وأنكره وأكّد الخبر بالقسم. وكذلك يرون أنّ حروف القسم من أدوات تأميد الخبر، لذلك يمكن بالفعل تصنيف بعض الأساليب الإنشائية غير الطلبيّة في باب الخبر<sup>3</sup>.

1: بن عيسى الطاهر: البلاغة العربية مقدّمات وتطبيقات، دار الكتاب الجديد المتّحد، بيروت لبنان، 1، 2008، ص 61

2: نفسه، ص 63.

3 يُنظر، بن عيسى الطاهر: البلاغة العربية مقدّمات وتطبيقات، ص 63.

## الفصل الثاني:

### البعد الاستعمالي للخروج عن مقتضى الظاهر

#### المبحث الأول: الخروج في توجيه الخطاب

- الخروج في الإنشاء ذاته.
- الخروج من الإنشاء إلى الخبر.
- الخروج من الخبر إلى الإنشاء.

#### المبحث الثاني: الخروج في وضعية الخبر

- وضعية افتراض السؤال
- وضعية افتراض الإنكار
- وضعية افتراض الإدراك

هذا الفصل من البحث بحول الله، سيحتوي على الجانب التطبيقي التحليلي على أمثلة وشواهد من القرآن الكريم لما سبق التطرق إليه من مفاهيم وأساليب للخروج عن مقتضى الظاهر بين الخبر والإنشاء. ف جاء تقسيمه إلى قسمين أو مبحثين حسب صنف الخروج ويكون:

**الأول: الخروج في توجيه الخطاب** وذلك حسب الأسلوب بين الخبر والإنشاء، فقد يحصل الخروج في الإنشاء ذاته أي بين صيغته، ويكون بين الأسلوب فيعدل عن أحدهما إلى الآخر فيخرج الخبر إلى الإنشاء ويحصل خلاف ذلك فيعدل عن الإنشاء إلى الخبر. **الثاني: الخروج في وضعية الخبر** هو ما يكون في الخبر ويعنى بحال المخاطب والمقام الداعي للقول، وذلك استنادا إلى قواعد إجراء الخبر من ابتداء، طلبى وإنكاري، فيخرج الكلام عن ذلك بتتزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردد فينزل الخبر مؤكدا، كما ويخرج عن الأصل في توكيد الخبر فينزل المنكر منزلة غير المنكر فينزل الخبر دون مؤكّدات وكان الأولى من مقتضى الظاهر أن ينزل خالي من أساليب التوكيد كلّها.

فيما يلي تطبيق وتحليل لآيات وشواهد مرفقة بشرحها وتفسيرها — إن دعت له الحاجة — والتحليل الدلالي التداولي المعتمد في إدراك مقتضى ظاهر الحال منها.

## المبحث الأول : الخروج في توجيه الخطاب:

إنّ المتكلّم حال الخطاب لا يكاد يخرج عن أسلوبين إمّا الخبر أوالطلب -كما تم توضيحه سابقاً-، وإن كان هذا لا يمنع التّوَعُّع الذي ينتج في وضعيّات التّخاطب بحسب حال المخاطب والمخاطب وكذلك موقفها من الخبر وكذلك طبيعة الطلب التي قد تؤدي لاستعمال أسلوب طلبي عوض غيره، فقد يستدعي المقام المخاطب اعتماد أسلوب الإخبار حيث يكون الأسلوب الإنشائي أولى بالاستعمال لو التزم بظاهر الحال من المقام. أو بتعبير بالطلب حيث يكون استعمال الخبر أولى لو التزم بما يقتضيه الحال، ومنه يكون هذا العدول وفق: الخروج في الإنشاء ذاته ويكون بالعدول من صيغة لأخرى، وخروج الإنشاء مخرج الخبر وأيضاً خروج الخبر مخرج الإنشاء.

### 1. الخروج في الإنشاء ذاته:

كما سبق الذّكر قد يخرج الإنشاء لصيغة غير الصّيغة التي يقتضيها الظاهر لدواعي تتعلّق بالمقام أو حاجة في نفس المتكلّم، ننبين ذلك مما يلي:

#### 1.1 خروج الأمر إلى الاستفهام:

• قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.<sup>1</sup> خرج الكلام عمّا يقتضيه الظاهر من الحال والمقام، فالنّبي في مقام الإرشاد والتعليم لكن جاء القول في الآية: (أسلمتم؟) على نسق الاستفهام جاء في التفسير أي: هل أسلمتم أم أنتم باقون على كفركم فقد آتاكم من البيّنات<sup>2</sup>، ولو سيق الكلام على ما يقتضيه ظاهر الحال وهو نسق الأمر بما يُوافق مقام المقال لكان قيل: (أسلموا) على الأمر، وذلك لما في الفعل (قُلْ) على الأمر.

1 سورة آل عمران: الآية 20.

2 محمد علي الصابوني: صفة التفسير، الجزء الأول، ص174.

• قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي

الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾.<sup>1</sup>

فقال: (هل أنتم منتهون؟) ذكر الصابوني في التفسير: الصيغة استفهام ومعناها الأمر أي: انتهوا ولذلك قال عمر: انتهينا ربنا انتهينا. قال في البحر: وهذا الاستفهام من أبلغ ما يُنهى به فهو موجب للانتهاء.<sup>2</sup> فمقتضى حال المقام أنه مقام وعظ وتحذير إذن؛ فالأولى أن يُقال (فانتهوا) لكن عدل عن ظاهر الحال فصيغ القول استفهاما. وعلى نفس هذا السياق كانت الآية من سورة الفرقان. حيث قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.<sup>3</sup> ورد في تفسير الآية الكريمة: نزلت جوابا عن قولهم: (ما لهذا الرسول يأكل الطعام) فقال: ما أرسلنا قبلك من الرسل إلا وهم يأكلون الطعام ويتجولون؛ فتلك سننهم فلم ينكرون ذلك؟ ثم قال: (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون) أي ينظر الله من يصبر ممن يجزع.<sup>4</sup> وظاهر الحال أن يُقال: (اصبروا) على الأمر لكن عدل إلى الاستفهام فقليل: (أتصبرون) ج، لما في فعل الاستفهام من العطف والرفق بدل الأمر الذي يُفرض إلى الإيجاب والالزام كأنما جعل الخيار لهم بالقبول أو الرفض فمنهم بالفعل من يصبر ومنهم دون ذلك، وكلُّ سيجزى بما عمل، لكن الحكمة -والعلم لله جلّ وعلا- أنّ الدين دين يسر ولا إكراه فيه. وأضاف وكان بك ربك بصيرا أي بما يعملون.

1 سورة المائدة: الآية 91.

2 محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، الجزء الأول، ص336

3سورة الفرقان: الآية 20.

4يُنظر، محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، الجزء الثاني، ص328.

## 2.1 خروج الاستفهام إلى التعجب:

• قال جلّ علاه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾.<sup>1</sup> إن ظاهر المقام من الآية استفهام لكن لم يُرد منه الجواب فهو تبارك وتعالى أدرى وأعلم إنّما أراد التعجب من سوء حالهم والتّحذير من موالاتهم، جاء في التفسير أي: ألم تنظر يا محمد إلى الذين أعطوا حظًا من علم التّوراة وهم أحبار اليهود، وهم بعلمهم يؤثرون الضلالة على الهدى، فما أعجب حالهم، فخرج من صيغة التعجب إلى الاستفهام ليجعل المخاطب يستفسر عمّا قادم لهذا وحملهم على هذا الفعل فيستعجب لحالهم.<sup>2</sup>

• وفي السورة ذاتها ذكر تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ فمثالها مثال الآية السابقة، فظاهر الحال لا يوحي بانتظار الإيجاب، فالأمر حين قال: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ) أي: ألم يبلغك خبر هؤلاء الذين يمدحون أنفسهم ويصفونها بالطاعة و التقوى؟ فهو لا يُقصد منه الإجابة إنّما خرج عن ظاهر الحال هو التعجب. قال قتادة: (ذلكم أعداء الله اليهود زكّوا أنفسهم فقالوا: {نحن أبناء الله وأحبّاءه} وقالوا: لا ذنوب لنا) ثم قال {بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ} أي ليس الأمر بمدحكم أنفسكم وتزكيتها بل بتزكية من الله فهو أعلم بحقائق الأمور وغوامضها يزكي المرتضين من عباده، ولا يظلم ربي أحدا.<sup>4</sup>

1 سورة النساء: الآية 44.

2 يُنظر، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص492.

3 سورة النساء: الآية 49.

4 يُنظر، محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، دار الصابوني، القاهرة، ط1، الجزء الأول، 1997، ص257.

• ومثاله أيضا قوله جلّ علاه ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ<sup>1</sup> وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ فالظاهر يقتضي أن يُصاغ الكلام تعجبا لكن عدل عنه إلى الاستفهام، فيتعجب من أمر من يدعي الإيمان ثم لا يرضى بحكم الله أي: ألا تعجب من صنيع هؤلاء المنافقين الذين يزعمون الإيمان بما أنزل إليك وهو القرآن وما أنزل من قبلك وهو التوراة والإنجيل.<sup>2</sup>

• جلّ من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.<sup>3</sup> فالله يتعجب من حال اليهود وينكر حالهم، فقد آتاهم الله حضا من العلم بالتوراة وما دللت عليه من أخبار نبوة هذا النبيّ فإذا دعوا لأن يحكم التوراة بينهم فلم يوافق أهواءهم اختلفوا فيه وهم يزعمون اتّباعه فحالهم يدعوا إلى العُجاب منه.<sup>4</sup>

### 3.1 خروج الاستفهام إلى التمني:

قال تعالى ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

ورد في التفسير: (فهل لنا اليوم شفيع يخلصنا من هذا العذاب؟ استفهام في معنى التمني)<sup>6</sup>. فالخطاب لا يقصد به التساؤل فعلا عن وجود الشفعاء، فهم يعلمون أن لا شفيع لهم، لكن يتمنون لو ان لهم من يشفع لهم عند الله، فمقتضى الظاهر أن يكون التعبير

1 سورة النساء: الآية 60.

2 محمد علي الصّابوني صفوة التفسير الجزء الأول، ص262.

3 سورة آل عمران: الآية 23.

4 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص359.

5 سورة الأعراف: الآية 53.

6 محمد علي الصّابوني: صفوة التفسير، الجزء الأول، ص419.

بالتمني أي: (يا ليت لنا شفاء فيشفعوا لنا). لكن عدل للاستفهام لعلمهم بعد تحقق تمنيهـم.

• ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ

سَبِيلٍ﴾<sup>1</sup> قال: (فهل لنا من مرد من سبيل؟)، فهم لا يستفهمون فعلا قصد الاستفهام إنما يبتغون أن يكون لهم المرد فيعملوا صالحا عليهم ينجون من العذاب فمقتضى الظاهر أن يكون الأسلوب تمنيا لا استفهام؛ أي: يا ليت لنا مرد أو إلى الرجعة سبيلا. وفي كلا الآيتين عدل إلى الاستفهام رغم أن الظاهر يقتضي التمني

#### 4.1 خروج الاستفهام إلى النهي:

• ﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ

بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَ اللَّهَ فَأَلْحَقُ أَن تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فمقتضى الظاهر أنه استفهام إلا أنه خرج عن مقتضى الظاهر إلى النهي دل عليه قوله: فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين<sup>3</sup> أي: لا تخشوهم فاللام هنا لام ناهية و(تخشون) فعل مضارع مجزوم بحذف النون لأنه من الأفعال الخمسة، فالله أحق بالخشية منهم وهو وليكم.

#### 5.1 خروج الاستفهام إلى الدعاء:

• قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (200) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ

حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (201) فَيَأْتِيهِمْ بَعْتَةٌ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (202) فَيَقُولُوا هَلْ

نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾.<sup>4</sup> مقتضى ظاهر الآية أن يكون المقام دعاء بما يناسب المقام، ورد في

التفسير: يقولون لما يفاجئهم العذاب تحسرا على ما فاتهم وتمنيا لإمهالهم فهل نحن

<sup>1</sup> سورة الشورى: الآية 44.

<sup>2</sup> سورة التوبة: الآية 13.

<sup>3</sup> محمد علي الصابوني: صفة التفسير، الجزء الأول، ص 487.

<sup>4</sup> سورة الشعراء: الآيات (203.200).

مؤخرون لنؤمن ونتصدّق<sup>1</sup>. فالمشهد من الآية أنّه مشهد المجرمين لما يروا العذاب وتتقطّع بهم الأسباب، فالأولى أن يجدوا من يعصمهم من العذاب فيدعون من يقدر على ذلك، فيقال: (ربنا انظرنا) لما في الخبر من معنى التحقيق وأيضا لأنّ التركيب الاسمي من المؤكّدات، لكنّ خرج الكلام عن مقتضى الظاهر وسيق الكلام استفهاما لأنهم يعلمون أنهم لن يُستجاب لهم.

## 2. خروج الإنشاء إلى الخبر:

### 1.2 خروج الأمر إلى الخبر:

ونماذج هذا في القرآن الكريم كثيرة منها:

• قال الله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي

سُنْبُلِهِ ۚ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾<sup>2</sup>

فلو عمد إلى ظاهر الحال من المقام الذي نشأ فيه الكلام لكان الأولى أن يُقال: ازرعوا سبع سنين دأبا على الأمر طلبا لا خبرا، لأنّ يوسف هنا في مقام النصّح والتوجيه فالأولى به الأمر لا الخبر وكذلك لدلالة الأمر فيما بعده لمّا قال: فذروه في سنبله. إذن فالحال يدلّ على الطلب لمقام النصّح، فكان مقتضى الحال أن يُصاغ الكلام طلبا لكن عُدل عنه للخبر وذلك للحرص على وقوع الفعل والإلزام به.

وفي نفس المقام قال تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيَنْفِقُوا

مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلُوفٌ﴾<sup>3</sup> فقد أنزل

الطلب منزلة الخبر، فقال: (يقيموا الصلاة وينفقوا ممّا رزقناهم) فظاهر الحال أن يُصاغ الخطاب أمرا بإقامة الصلاة والإنفاق<sup>4</sup> لأنّ هذا ما يوافق ويقتضيه الحال في السياق لكنّ

<sup>1</sup> محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، الجزء الثاني، ص363.

<sup>2</sup> سورة يوسف: الآية 47.

<sup>3</sup> سورة إبراهيم: الآية 31.

<sup>4</sup> 44 ينظر، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ص1036.

الآية عدلت عن الطلب وسأقت الجواب في نسقٍ خبريٍّ على خلاف مقتضى الظاهر وذلك لإضافة معنى الحرص على وقوع الفعل الذي لا يظهر إن جرى الكلام بما يقتضيه ظاهر الحال.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾<sup>1</sup>. فمقتضى ظاهر الحال أن يُصاغ الكلام أمراً أن: (أدوا الأمانات إلى أهلها واحكموا بالعدل) فعدل عما يستدعيه المقام ويقتضيه ظاهر الحال إلى الخبر بـ: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)، فجاء الأمر بصورة الإخبار وصدّر الخبر بـ: (إن) المفيدة للتحقيق، فأكدت الأمر وأوجبت الامتثال.<sup>2</sup> فكان من الحرص والتحضير على اتصاف المؤمن والتزامه بأوامر الله تعالى والانصياع لها، المسوّغ لمجيء الآية على هذا النحو وحدث هذا الخروج، في هذه الآيات ومن أمثالها:

• قال الله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ۗ﴾<sup>3</sup>، فكذلك كان العدول في أسلوبها من الأمر إلى الخبر، لما في الخبر من الزام وإثبات لوقوع الفعل وهذا ما أكد عليه الزمخشري في قوله: وإخراج الأمر في صيغة الخبر تأكيداً للأمر وإشعاراً بأنه مما يجب أن يُتلقَى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر فهو يخبر عنه موجوداً، وبناءً على المبتدأ زاد من تأكيده، ومثل ذلك نحو قولهم: (رحمك الله) على الخبر أشد ثقة في الإجابة من صياغتها دعاء وكذلك بناؤه على الاسمية زاد إثباته وتأكيده.<sup>4</sup> وأصل الكلام (ولتتريص المطلقات) لأن السياق يدلّ على أن الله أمر بذلك على وجه الإلزام لا الإخبار. وفي نفس العدول، قال الله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ

1سورة النساء: الآية 58.

2 يُنظر، محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، الجزء الأول، دار الصابوني، القاهرة، ط1، 1997ص263.

3سورة البقرة، الآية 227.

4محمود بن عامر الزمخشري:الكشاف، ت: عادل أحمد عبد الوجود- هلي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، الجزء الأول، ط1، 1998، ص440.

كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ<sup>1</sup>، فخرج الكلام عن مقتضى الظاهر، بخروج الأمرالى الخبر، والدّاعي له مبالغة في الحمل على تحقيقه أي: فليرضعن، وجاءت على هذا الحال للتأكيد والالزام به كما في سياق الآية السابقة.

• قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ<sup>2</sup>، أي: الأمر أي فليشهد أحد بينكم<sup>3</sup>، أي: إذا حضر أحدكم الموت فاشهدوا ذوا عدلٍ منكم، على وجه الأمر لكن أخرج الأمر خروج الخبر لبيان الإثبات والالزام، لما في الخبر من إحياء بأنّ الأمر قد أنجز، أو في زمن الإنجاز بسبب زمنية الفعل الذي يدلّ عليه المعبر عنه.

• قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ ءَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ<sup>4</sup> أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ<sup>5</sup>، أي: فليكن المؤمنون والمؤمنات بعضهم لبعض أولياء، جاء الأمر في صيغة الخبر ليدلّ على الإلزام والإثبات.<sup>5</sup>

## 2.2- خروج النهي إلى الخبر:

• قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ<sup>6</sup>.

1 سورة البقرة: الآية 233.

2 سورة المائدة: الآية 106.

3 محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، الجزء الأول، ص343

4 سورة التوبة: الآية 71.

5 عبد الرحمن حسن حنبكة المدني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها ص176.

6 سورة البقرة: الآية 83.

فالواضح من ظاهر الحال أنّ المقام مقام نهّي وأمر، إذ يظهر جلياً أنّ هذا الميثاق كان أوامر دلّ عليها ما جاء في الآية من عطف بعدها من صيغ الأفعال "قولوا" و"أقيموا"، "آتوا" لكن عدل عن النهي في: "لا تعبدون" فالفعل هنا يُعرب فعلاً مضارعاً مرفوعاً بثبوت النون لأنّه من الأفعال الخمسة فكانت "لا" نافية وكان ظاهر الحال أن تكون ناهية فالأولى أن يصير الفعل مجزوماً بحذف النون فتكون: (لا تعبدوا) وفيها قال الزمخشري: «خبر بمعنى الطلب»<sup>1</sup>، رغم أنّ في صريح العبارة كانت تدلّ على النهي عن عبادة غير الله والشرك به ومما يدعم إرادة النهي في هذا المقام ما عطف بعده بـ "قولوا" ولو كان القصد غير النهي لما صلح العطف. إذ إنّ الميثاق كان أوامر وفروضا ألزمها الله لبني إسرائيل ليلتزموا بها، فعُدل عن "لا تعبدوا" إلى "لا تعبدون" أي: خرج الكلام عمّا يقتضيه ظاهر الحال وهو النهي إلى الخبر، قال بعض المفسرين والخبر أبلغ من صريح النهي كما قال أبو السعود لما فيه من إبهام أنّ المنهي حقّه أن يُسارع إلى الانتهاء فكأنّه انتهى عنه، فجاء بصيغة الخبر وأراد به النهي.<sup>2</sup> وذكر البعض أفراد الفعل تعبدون بالعدول على خلاف (قولوا، أقيموا، آتوا) لأنّه أعظم من سابقه أعظم وأهمّ الأفعال الواردة في الميثاق لأنّها قاعدة وعمود الإسلام التّوحيد الذي دُعي بنوا إسرائيل للالتزام به وكذلك سائر الخلائق بعدهم وقبلهم ومن دليل عظّمته أن قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾<sup>3</sup>.

وفي نفس مثال الآية السابقة يُعدّل عن النهي إلى الخبر في قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشَاهِدُونَ﴾<sup>4</sup>، إذ لو أخذ الكلام على مقتضى ظاهر الحال لكان قيل: لا تسفكوا ولا

1 إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار بن حزم، بيروت لبنان، 2000، ص 155

2- محمد علي الصّابوني: صفوة التفسير، الجزء الأول، ص66

3- سورة النساء: الآية 116.

4سورة البقرة: الآية 84.

تخرجوا لأنَّ المقام مقام نهي كما يدلُّ عليه السياق فهو ممَّا نصَّ عليه الميثاق- الميثاق السابق ذكره - من أوامر ، لكن المبالغة في النهي وتأكيد الالتزام به والامتثال للأمر أخرج الفعلين إلى حكم الخبر فرفعا بثبوت نون الفعلين، وكان هذا الخروج لعظمة الحدث المخبر عنه؛ فقد أُخرج إلى الخبر لأنَّ سفك الدماء من الأفعال التي تذهب أمن واطمئنان الناس لأنَّ من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية حفظ النفس في السفك والاعتداء من فساد في الأرض وخراب لها ودليله قوله عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾<sup>1</sup>. لذا جاء النهي خبرا تحذيرا وإيدانا بسرعة الامتثال لما نُهوا عنه، كأن النهي قد حدث بالفعل بعقد الميثاق فجاز هنا الإخبار، وذات التحليل يُقاس عليه الفعل: (تخرجون) فظاهر الحال يقتضى النهي: (لا تُخرجوا) وكان من الاعتداء الاعتداء على النفس كأنما المعتدي إذا اعتدى إنَّما يعتدي على نفسه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾<sup>2</sup>. فكان المعنى من الآية هو النهي عن الإنفاق فيما لا يُبتغى فيه وجه الله، ويجوز حمله على أنه أمر بأن يُقال: (أنفقوا ابتغاء وجه الله) وفي كلا الحالتين؛ كان الأسلوب طلبيا إنشائيا موافقا للسياق الذي نزلت فيه الآية وهو سياق نصح وإرشاد وهو ما يُناسب أسلوب الأمر والنهي في حالتها الالتزام والتحذير، غير أنَّ الآية عدلت عن ظاهر الحال من الطلب إلى الخبر باعتماد أسلوب النفي بـ ما والفعل من الأمر والجزم إلى المضارع المرفوع بثبوت النون لأنَّه من الأفعال الخمسة فكان مقتضى الظاهر أن يُقال: (أنفقوا ابتغاء وجه الله) فعدل عنه إلى الخبر بـ: (لا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله).

1 سورة المائدة: الآية 32.

2 سورة البقرة، الآية 272.

لقد اعتمد في العدول من النهي إلى الخبر في الآيات السابقة على صياغة الفعل الأمر بدل أن يكون مضارعاً، وحمل "لا" الناهية حمل "لا" النافية التي تدلّ على الخبر ولا تجزم الفعل المضارع. لكنّ قد يتمّ هذا العدول عن طريق إخراج النهي إلى الخبر جملاً اسمية، ومثال ذلك قال جلّ علاه: ﴿الْحَجُّ أَشْهَرُ مَعْلُومَتٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفْتٌ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ ذكر المفسرون في: (فلا رفت ولا فسوق ولا جدال في الحج أي: فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا يرفث ولا يفسق ولا يجادل في الحجّ. فهو ليس نفيًا لوجود الرّفث، بل هو نفي لمشروعيته.<sup>2</sup> فلو سيقّت الآية بما يقتضيه الظاهر لكانت هكذا تمامًا كما ذكر المفسرون، لأنّ المقام الذي في سياق الآية مقام إعلام وتعليم يستدعي اعتماد الإرشاد والأمر والنهي إذ إنّها من الأمور الواجب التزامها في الحجّ ودليل ذلك الحديث الشريف ممّا صحّ البخاري قال: حدّثنا محمد بن يوسف حدّثنا سفيان عن منصور عن أبي حازم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلّم: (من حجّ هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمّه)<sup>3</sup> لذلك حمل بعض المفسرين فعلا الرّفث والفسوق حمل النهي وحملوا الجدال محمل الخبر لعدم خلافه لأحكام الحجّ واستدلّ أنه لم يذكر الجدال في الحديث<sup>4</sup>. فالسياق نهي في مقام تعليم لذا عدل عن النهي (لا ترفثوا ولا تفسقوا) إلى الخبر (لا رفت ولا فسوق ولا جدال).

إنّ التعبير عن المنهيات بلفظ الخبر أبلغ وأشدّ تأكيداً بالالتزام بها من صريح النهي وكذا الأمر، وهذا من مبالغة وتشديد المؤمنين بهذه النواهي والأوامر ولو كان التعبير بصريح النهي والأمر لما حمل من المعنى سوى الأمر بتحقيقه أو ربّما قد لا يحقق خلاف

1 سورة البقرة، الآية 197.

<sup>2</sup> عبد الرحمان حسن حنبكة، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص 177

<sup>3</sup> محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار ابن حزم، القاهرة، 2010، ط 1، ص 217.

<sup>4</sup> يُنظر، محمود بن عامر الزّمخشري: الكشاف، ت: عادل أحمد عبد الوجود- هلي محمد معوض، الجزء الأول، مكتبة العبيكان، الرياض، ط 1، 1998، ص 407.

هذا العدول الذي أضاف للمعنى مبالغة لا يتصور معها إلا الامتثال ولعلّ هذه الفائدة هي الدّاعي إلى هذا العدول.

### 3 - خروج الخبر إلى الإنشاء:

يُعرف الكلام بنسق الطلب ممّا خلا من الحكم الذي يحمله الإخبار ولا على القول بالصدّق والكذب والذي يمثّل الحبل الذي يميّز الأسلوبين عن بعضهما، غير أنّ ظروف الحال وخصوصيات المقام تستدعي من المتكلم العدول عن هذا الأصل فيجري كلامه على الخبر ولو كان ظاهر الحال يستدعي اعتماد الطلب والعكس وذلك بما تلزم به ظروف المقام. ولهذا الخروج نتائج فيكون هذا الميل عن الأولى أجدر بالالتزام بظاهر الحال كما ورد في الشواهد -في خروج الطلب إلى الخبر- فخروج الطلب إلى الخبر يدعم الكلام بالمبالغة والإثبات والالزام وكذا الاستمرار، لم يكن في خروج الخبر إلى الطلب ذلك الفضل من المبالغة لذا كان أقلّ استعمالاً من سابقه. لكنّ رغم ذلك لم يمنع من إدراك أبعاد أخرى يمكن وصف وتحليل واستنباط الشواهد الواردة في القرآن والتي يمكن أن نحصرها في اثنتين:

- خروج الخبر إلى الاستفهام.
- خروج الخبر إلى الأمر.

#### 1.3 خروج الخبر إلى الاستفهام:

يوظّف الاستفهام في مقام الخبر لما يستدعي في الخطاب من إجابة ممّا لا يكون في الخبر الذي لا ينتظر منه ردّ. فقد يخرج الخبر إلى الاستفهام لما في الاستفهام من خصائص يضيفها للكلام سائبينها في القادم من الشواهد.

• قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾<sup>1</sup>. فمقتضى الظاهر من الآية أنّ الكلام يقتضي الإخبار في خطاب الله لنبيه لم يكن يعني التساؤل حقاً فهو تبارك وتعالى أعلم بما صنع، فكان الأولى أن تحمل العبارة محمل الخبر لما يحمله من معنى الحكم، فظاهر الحال أن يُقال: (قد شرحنا لك صدرك)، لكن خرج الكلام عن مقتضى الظاهر الذي يستدعي الخبر إلى الطلب و الاستفهام في قوله: (المنشرح لك صدرك؟)، طلباً لإقرار المخاطب بهذا الخبر وتأييده بالإيجاب، لذا عدل عن الخبر الذي إن سيق على هذا النحو لن يحقق هذا القصد من إقرار المخاطب بالخبر. وعلى نفس هذا التحليل جاء تساؤل في مطلع سورة الإنسان.

• قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾<sup>2</sup>. كذلك فهو جل جلاله لا يُدلي بالسؤال حقاً لأنه أدري وأعلم، إنّما أرد الخبر بذلك، فمقتضى الظاهر أن يكون النسق إخباراً لأنّ المقام مقام تعليم وتدبر العباد كيف كانوا أول الأمر ويكون الخبر بأن يُقال: (قد أتى على الإنسان حيناً من الدهر لم يكن شيئاً) تحقيقاً له. لكن عدل عن ذلك بالاستفهام بـ "هل" فقال: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؟) باعتبار أنه كان نطفة لا تذكر. وقد يُحمل على أنه استدعى بهذا الاستفهام جواباً في نفس المتكلم فلا يجيب إلاّ بأن يسأل نفسه ويقرّ بالحقيقة، وهذا غاية الخروج بالاستفهام كون الخبر مقتصر الحكم في الصدق والكذب بين مصدق ومنكر ومتسائل عن الخبر فهو لا يمدّ القدرة على حضّ المتلقي ودفعه على البحث عن الإجابة والإقرار بهذا الخبر فهذا شأن الطلب لا الخبر.

• قال تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾<sup>3</sup>. فمقتضى الظاهر يقتضي أن يكون الكلام خبراً لأنّ المقام مقام إخبار وتذكير فالأولى أن يكون القول: (قد

1 سورة الشرح: الآية 1.

2 سورة الإنسان: الآية 1.

3 سورة الكهف: الآية 75.

قلت لك أنك لن تستطيع صبرا)، لكن خرج عنه للاستفهام، فمعناه: (أنني قد قلت ذلك لك فأقرّ به)، فجاء العدول للاستفهام تثبيتا للقول وتحقيقا له، فطرح استفهام منفي، بطرحه للخبر طلبا كأنما أراده أن يقرّ بذلك لتكون الإجابة بإقراره: (بلى، قد قلت).

وفي نفس التحليل والمعنى، ورد في سورة يوسف: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِمِينَ﴾<sup>1</sup> فمقتضى الظاهر يوجب أن يُصاغ الكلام خبرا فيقال: (قد علمتم أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا) وهم لا ينكرون ذلك، وهو إنمّا يريد تثبيتاخذ الميثاق وإقرارهم به أي: (قد علمتم أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله). ومثال ذلك قال جلّ علاه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾<sup>2</sup>. فموسى لا ينكر ذلك، وإنمّا يريد فرعون تثبيت هذا وأن يُقرّ موسى بهذه الحقيقة، فظاهر الحال أن يكون الخطاب على نسق الخبر أي: لقد ربيناك فينا وليدا. هذا النوع من الاستفهام يسميه بعض البلاغيين الاستفهام التقريري، لأنه يأتي في معنى تثبيت الخبر وفي نفس التحليل نجد قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾<sup>4</sup>. قال الموقّق بن عبد اللطيف البغدادي: (أي: من حقّ عليه العذاب فإنك لا تنقذه، ف "من" للشرط، و "الفاء" جواب الشرط و"الهمزة" في "أفأنت" دخلت معادة لطول الكلام، وهذا نوع من أنواعها). وقال الزمخشري: (الهمزة الثانية هي الأولى كرّرت لتوكيد معنى الإنكار والاستبعاد).<sup>5</sup>

1 سورة يوسف: الآية 80.

2 سورة الشعراء: الآية 18.

3- فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط2، ص192

4 سورة الزمر: الآية 19.

5- عبد الرحمان حسن حنبكة: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، ص302

وكما قد يُعدّل بالاستفهام عن الخبر مثبتا قد يُعدّل به أيضا عن النفي، ومن الآي الواردة على هذا النحو:

• قال الله جلّ علاه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.<sup>1</sup> فمقتضى الظاهر أنّ المقام مقام خبر منفي أي أن الأمر مقضي وهم لا ينظرون، فيكون قول الآية على هذا النسق: (لا ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) لكن عدل عن مقتضى ظاهر الخبر إلى الطلب بالاستفهام فقيل: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام؟) فهو استفهام إنكاري في معنى النفي، أي: (ما ينظرون) فهي مرفوعة بثبوت النونبدليل مجيء الحصر بـ: "إلا" بعدها.<sup>2</sup>

• قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مَّلَّةٍ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.<sup>3</sup> ورد في التفسير: (ملة إبراهيم: أي طريقته ومنهجته ومن يخالفها ويرغب عنها (إلا من سفه نفسه) أي ظلم نفسه بسفهه و سوء تدبيره، وتركه الحق إلى الضلال)<sup>4</sup>. فمقتضى الظاهر أن يأتي الكلام بصيغة النفي ودليل ذلك الحصر بعده بـ: "إلا" فيقال على نسق النفي: لا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه، في نسق الخبر لأنّ المقام مقام إعلام وتبهيولكن عدل عمّا يقتضيه الظاهر من الخبر إلى نسق الاستفهام فالمعنى: (من ذا الذي يرغب عن ملة إبراهيم ويميل عنها؟)، في استفهام إنكاري لم يكن القصد منه التساؤل والبحث عن الإجابة بل نفي وقوع الخبر أي: (ولا يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه).

1 سورة البقرة: الآية 210.

2 - يُنظر، محمد علي الصّابوني: صفوة التفاسير، الجزء الأول، ص 120

3 سورة البقرة: الآية 130.

4 ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ص 212

• وفي مثال هذا العُدول جاء قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.<sup>1</sup> فمقتضى الظاهر أن يُقال: (ولا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) أي: لا أحد أظلم ممن جاء بهذا الصنيع فيمنع مساجد الله أن يُذكر فيها اسمه، لكن خرج الكلام عن هذا إلى نسق الطلب باستفهام: ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه".

• وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾.<sup>2</sup> ومثلها مثال الآية السابقة فمقتضى الظاهر يستدعي الخبر لأن المقام مقام إرشاد ووعظ فيكون الكلام: لا أحد أشدُّ ظلماً ممن ادعى على الله كذباً، وادّعى أنه أوحى إليه، فيُقال: (ولا أظلم ممن افترى على الله كذباً) إلا أنه قد عدل عنه بالاستفهام فقيل: (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً).

إن اعتماد الاستفهام في هذا السياق بخصوصية الحال أبلغ من اعتماد الخبر، لأن الاستفهام يستدعي الإجابة والردّ، ولا يكون هذا الردّ إلا بتأملٍ وتحرّر الأمر في النفس والبحث عن الحقيقة والإقرار بها، وهو ما يجعل المتلقّي يتوقف وهلة وينتبه إلى ما يفضي إليه هذا التساؤل فيدرك فحوى الخطاب ويقرّ بمضمونه ويمتثل له.

### 2.3 خروج الخبر إلى الأمر:

• قال جلّ من قائل: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.<sup>3</sup> اتفق المفسّرون على في أنّ قوله: (موتوا) القصد منها الخبر ب: أماتهم، فهو خبر خرج عن ظاهره إلى الأمر بدليل العطف بعده ب ثم أحياهم؛ فلو كان

1سورة البقرة: الآية114.

2سورة الأنعام: الآية93.

3سورة البقرة: الآية243.

القصد أمراً حقا لما جاز عطفه على الماضي لأنّ دلالة الأمر أن زمن تحقق الفعل هو الحال وهو مالا يناسب الماضي.<sup>1</sup> فلو التزم بما يقتضيه ظاهر الحال لكان القول: "أماهم ثم أحياهم"، لكن خرج الكلام عن مقتضى الظاهر إلى الأمر، والمعنى أن الحدث قد وقع عليهم جميعا مينة رجل واحد في أسرع وقت ممكن دون سبب ظاهر تنفيذاً للأمر، وفق قوله **جَلَّ عُلَاهُ حِينَ أَمَرَ بِأَنْ يُقْضَى شَيْءٌ بِأَنْ يَقُولَ: كُنْ فَيَكُونُ**.<sup>2</sup> فبما كان هذا الخطاب يحوي على أمرٍ صريح تحقيقاً لأمر الله **جَلَّ وَعَلَا** انقيادا للإرادة الإلهية فذكر: "قال لهم" فعدل عن النسق الخبري إلى الطلب بصيغة الأمر الذي يحمل من انصياع وقيادة للأمر الملقى خلاف الخبر الذي لا يحمل هذه الدلالة.

• وقال تعالى في موضع آخر: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾.<sup>3</sup> فكان الأمر جلياً يدعو إلى الإنفاق طواعية أو كرها، ثم بدا

خلاف الأمر حين بين جزاء ذلك حيث قال: (لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ)، فهذا ليس أمراً بالإنفاق، بل هو إعلام وإخبار أكيد لهم عن عدم قبول إنفاقهم.

وعلى سبيل الذكر قد يُصاغ الخبر على الطلب بصيغة الدعاء، ومثاله من الذكر الكريم: قال عز وجل: ﴿قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ يُغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾<sup>4</sup> قال: "يغفر الله لكم": جملة خبرية أُريد منها الدعاء لهم بأن يغفر الله لهم. فقد كان دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لبعض أصحابه: (غفر الله لك) بأسلوب الخبر، والمعنى: اللهم اغفر له، وذلك لما في الخبر من إثبات وإلزام وتحقيق للدعاء.

1 يُنظر، محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ت يوسف عبد الرحمان المرعشلي وآخران، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1994 ص247.

2 أبي الفضل شهاب الدين الألوسي: روح المعاني، ت محمد شكري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص161.

3 سورة التوبة: الآية53.

4 سورة يوسف: الآية92.

## المبحث الثاني: الخروج في وضعية الخبر:

يخرج الخبر عن مقتضى الظاهر بخروجه عما يقتضي ظاهر القول في الكلام البليغ، وهو ما جاء من الأقوال البليغة على غير القاعدة، فقد يُلقى الكلام للمنكر غير مؤكد، وقد علمنا أنّ المنكر يجب له التأكيد، وكذلك السائل أو المتردد قد لا يؤكد له، ويجب له التأكيد، وأما خالي الذهن الذي لا ينبغي أن يؤكد له الكلام، قد يؤكد له، فينزل منزلة السائل المتردد أو المنكر فيؤكد له.

### 1 - وضعية افتراض السؤال:

• قال الله تعالى: ﴿وَأَصْنَعِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾<sup>1</sup>. فقله جلّ وعلى: "إنهم مغرقون" إخباراً بما سيقع وبيان لسبب الأمر بصنع الفلك، فالتأكيد الوارد في الآية مثال لتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر بتنزيل غير السائل منزلة السائل المتردد، فلما قدّم من الكلام ما يستشرف به الخبر، يشبه استشراف السائل المنتظر للخبر، رُغم أنّ مقام نوح عليه السلام لا يستدعي التوكيد لأنّه لم يسأل عن مصير هؤلاء الظالمين فصيغت الآية على افتراض التساؤل.

من جهة أخرى ذكر المفسرون هذا التأويل على احتمالين: أولاً، أنه تساءل عن سبب صنع الفلك وليس هناك ماء أو عما سيحلّ بهؤلاء المعاندين، أم أنّ الله ينزل ماءً من السماء عقاباً لهم فأمر الله بصنع الفلك جعل في نفس نوح - عليه السلام - كثيراً من التساؤلات فألقى الخبر مؤكداً وأنزل منزلة السائل<sup>2</sup>. أو من جهة أخرى، ورد في تفسير القرطبي: {ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون} أي: لا تطلب إمهالهم فإنّي مغرقهم، فلا راد لأمر قضاة الله. وهذا الأخير ما جاء في تفسير ذات الآية، أي؛ ولا

1 سورة هود: الآية 37.

2 فضل حسنعباس: البلاغة فنونها وأفنانها، دار الفرقان، عمان، الأردن، ط2، ص132.

تخاطبني يا نوح في شأن هؤلاء الظالمين؛ بأن ترجوني في رحمتهم أو في دفع العذاب عنهم، فقد صدر قضائي بإغراقهم<sup>1</sup> ولا رادّ لقضائي أي أجابه قبل أن يسأل وكلا المعنيين خرج الكلام عن مقتضى الظاهر فجعل نوحا عليه السّلام بمنزل السائل فألقى الكلام مؤكدا. فلو التزم بما يقتضي ظاهر الحال لقال: "فهم مغرقون" على سبيل الخبر الابتدائي، وقد يُلجأ إلى مثل هذا الأسلوب للفت انتباه إلى أهمية وخطورة ما يحمله الخبر فيدفعه إلى التساؤل.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ

عَظِيمٌ﴾<sup>2</sup>، فلفت انتباههم بالنداء ثم وجه الأمر فأورد التوكيد فقال ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، كأنهم قد سألوا عن الدافع من هذا الطلب، أو عقوبة عدم الالتزام به فنزلوا بمنزلة السائل المتردد الذي يبحث عن الخبر الصحيح اليقيني.

على خلاف تساؤلات واردة في الذكر الحكيم لم تكن إجابتها مؤكدة، مثال ذلك قوله

تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ

وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾<sup>3</sup> وقال أيضا:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾<sup>4</sup> فكلّ خبرٍ صيغَ دون مؤكداً رغم

أنّ الداعي له تساؤل صريح، لذا لم تكن الإجابة لمحض السؤال إنّما لم يقتضِ المقام

توكيدا كونَ السؤال الغاية منه التدبّر والوعظ الدال على عظيم وبديع خلق الله. ومثال ذلك

أن يذكر الله أمراً ويريد أن يبين عظيم جزائه وقدره، ومنه مفهوم التزكية التي وردت في

سورة التوبة:

<sup>11</sup> يُنظر، محمد علي الصابوني: صفوة لتفاسير، الجزء الثاني، ص12

2سورة الحج: الآية 1.

3 سورة البقرة: الآية 215.

4 سورة طه: الآية 105.

قوله عز و جل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ<sup>1</sup>. ورد في التفسير؛ قال: (سكن لهم) قال ابن عباس: رحمة لهم، وقال قتادة: وقار. وفي التفسير السعدي قال: أي؛ طمأنينة واستبشار. قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا أبو العميس، عن أبي بكر بن عمرو بن عتبة، عن ابن الحذيفة، عن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا لرجل أصابته، وأصابته<sup>2</sup> ولده، وولد ولده. نزلت الآية مبينة حكم أولئك الذين اعترفوا بذنوبهم، فخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، فهذا الحديث من شأنه أن يثير التساؤل حول: ماذا ستصنع بهم صلاته؟ هل تمحو ذنوبهم؟ أو تطهرهم من أخطائهم؟ فجاء قوله مجيباً عن كل هذه التساؤلات: {أَنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ} أي: ادع لهم بالمغفرة فإن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم ورحمة، فقد أنزل خالي الذهن منزلة السائل المتردد فأكدت بمؤكدين "إن" و"الجملة الاسمية".<sup>3</sup>

## 2- وضعية افتراض الإنكار:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾<sup>4</sup>. أخرج الشيخان من طريق ابن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال أي عم قل: لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزالا يكلمانه حتى آخر شيء كلمهم به هو على ملة عبد المطلب فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لأستغفرن لك، ما لم أنه عنك"، فنزلت، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ و أنزل في أبي

1سورة التوبة: الآية 103.

2إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2000، ص905.

3فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، ط2، دار الفرقان، عمان، الأردن، ص 132

4سورة القصص، الآية 56.

طالب: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ}<sup>1</sup>، قال المفسرون أي: يا محمد إِنَّكَ لا تقدر على هداية أحد، مهما بذلت فيه من جهود، وجاوزت فيه كل محدود، ثم قال: {وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} أي ولكنه تعالى بقدرته يهدي من يشاء و{ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} فهو تعالى العالم بمن فيه استعداد للهداية والإيمان فيهديه. قال أبو حيان: ومعنى { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} أي لا تقدر على خلق الهداية فيه، ثم قال ولا تنافي بين هذا وبين قوله: {وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} لأن معنى هذا: أنك ترشد.<sup>2</sup> ففي هذا القول الكريم أنزل النبي صلى الله عليه وسلم وهو غير منكر منزلة المنكر، فقد سبق قوله أن: "سأستغفر لك ما لم أنه عنك".

3 قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنَّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ قال: {فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّي إِنَّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى} أي فلما ولدتها قالت على وجه التحسر والاعتذار يا رب إنها أنثى قال ابن عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النذر ألا الذكور فقبل الله مريم، قال تعالى: {والله أعلم بما وضعت} فالله يعلم بالشيء الذي وضعت قالت ذلك أو لم تقل 4. وأخذه بعضهم أنها إنما عنت تأكيد ذلك لنفسها لأنها لم تصدقه، فقد استقرّ في هذه النفس بأن جنينها الذي تحمله ذكر ولهذا نذرت له للعبادة، من أجل ذلك جاء التأكيد لتمحو ما استقرّ في نفسه<sup>5</sup>، فأنزلت نفسها منزلة المنكر وهي غير منكرة لأنها رغم معرفتها بما وضعت إلا أنها لم تتقبل ذلك، لأنها وهبتة محرراً والنذر عادة يكون للذكور لا الإناث.

1 عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي: صحيح أسباب النزول، تحقيق مصطفى أبو المعاطي، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، ص116

2 محمد علي الصّابوني: صفوة التفاسير الجزء الثاني، دار الصّابوني، القاهرة، ط1، 1997، ص404.

3 سورة آل عمران: الآية 36.

4- محمد علي الصّابوني: صفوة التفاسير الجزء الأول، ص181.

5- يُنظر، فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، ص134.

ومثال ذلك، قول الله تعالى في نوح لما شكَا تكذيب قومه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي

كَذَّبُونِ (117) فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا وَنَجَّيَ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (118)﴾

فهذا التأكيد ليس من أجل المخاطب، فالله يحيط بكل شيء علماً؛ إنما كان توكيداً للمتكلم نفسه، كأنما يستبعد أن قومه يكذبونه بعدما بذل كل ما يقدر في سبيل دعوتهم فعُدل عن ظاهر الحال وهو نقل الخطاب خالياً من التوكيد إلى ما مقامه التوكيد على افتراض الإنكار.

ومثاله أيضاً قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (5) فَلَمْ

يَزِدَّهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا (6) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي

ءَادَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (7) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ

جَهَارًا (8) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (9)﴾<sup>2</sup>. فالمؤكدات تكاد لا تخلو منها أي جملة في الآيات رغم أن المقام ليس مقام إخبار، ولا الله يخفى عليه ما شكَا له نبيه إلا أن الكلام خرج عن مقتضى الظاهر، ليؤكد لنفسه كونه لم يصدق أن جهاده ودعوته لقومه لم تفلح بل زادتهم إصراراً واستكباراً.

• قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي

الْقُبُورِ﴾<sup>3</sup>. ورد في كتب التفسير: أي وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا

مرية. فالخروج عن مقتضى الظاهر هنا تم كالاتي: تم إنزال غير المنكر منزلة المنكر، لأنهم بالرغم من معرفة حقيقة يوم القيامة والبعث، إلا أنه لا يظهر من أفعالهم وأقوالهم الخوف والوجل من هذا اليوم العظيم.

1 سورة الشعراء، الآية (117.118).

2 سورة نوح: الآيات (5-9)

3 سورة الحج: الآية 7.

كذلك قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾<sup>1</sup>. أي:

يا أيها الناس إنكم بعد تلك النشأة والحياة لصائرون إلى الموت. فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز قبل هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءآخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾<sup>2</sup>. فعلى طول ذلك التكوين والدقة في التصوير وبعد أن صار الإنسان من طينٍ إلى نطفةٍ ثم علقةٍ فمضغةٍ ثم عظامٍ تُكسى لحمًا فيكون خلقًا جديدًا، فتبدأ الحياة ثم قال: ( إنكم بعد ذلك لميتون) مباشرة كأنما الحياة كلها ماهي إلا زمنٌ قصير. فأنزل المخاطب وهو غير منكر منزلة المنكر لأنَّ البادي منه لا يدلّ على أنه يدرك الموت. فالناس لا ينكرون الموت ولكن غفلتهم عنه وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح يعدّان من علامات الإنكار، ولذلك نزلوا منزلة المنكرين وألقي الخبر عليهم مؤكّدًا بمؤكّدين هما: إنّ و اللام.<sup>3</sup>

### 3- وضعية افتراض الإدراك :

وعلى خلاف ما سبق، قد يُنزل المنكر للخبر منزلة المدرك له (غير المنكر له) لدواعٍ يُلزمها المقام ، كحقيقة وجود إله واحد يحكم الكون لا شريك له، فيتوصّل لهذا كل إنسان سليم العقل والفطرة، ودليل ذلك أن القرآن الكريم طرح في هذا النزل تعجّباً ممّن ما يزال يشك في وحدانية الله أو قدرته جلّ وعلا، وقد ورد في الذكر الحكيم آيات في سياق إنزال المنكر منزلة غير المنكر، ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾<sup>4</sup>. وفي سبب نزول هذه الآية عن عطاء قال: أنزلت بالمدينة على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَالْهُكُّمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فقالت كفار قريش بمكة كيف يسعُ الناسُ إلهً واحدًا؟ فأنزل الله تعالى:

1 سورة المؤمنون: الآية (15، 16).

2 سورة المؤمنون: الآية(12.13.14).

3محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير الجزء الثاني، ص279.

4 سورة البقرة: الآية 163.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾<sup>1</sup>. نزلت هذه الآية على أهل مكة، وكانوا ينكرون الوجدانية، فكان الظاهر أن يُلقى الخبر مؤكداً، ولكن خرج الكلام عن مقتضى الظاهر. فالآيتان: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} و{وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ} كلاهما مكيتان وأهل مكة منكرون، ورد الخبر في كلا الآيتين خالياً من التأكيد تنزيلاً للمنكر منزلة غير المنكر، وذلك لأنَّ بين أيديهم من البراهين الساطعة والحجج القاطعة ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع.<sup>2</sup> إلا أنَّ قلوبهم غُلفٌ أن يبصروا بآي الله في الكون، فساقها الله سياق الحقيقة الواضحة التي لا يشوبها شك.

<sup>1</sup>سورة البقرة: الآية 164.

<sup>2</sup>محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، الجزء الأول، ص99.

الختمة

بعد إكمال موضوع هذا البحث الذي يخصّ ظاهرة من أدقّ ظواهر اللّغة العربية وأغناها، ألا وهي ظاهرة الخروج عن مقتضى ظاهر الحال التي تمّ دراستها من حيث البعد التداولي الاستعمالي، وبعد تفحصّ الموضوع والخوض في أعماقه توصلت إلى نتائج ووقفت على نقاطٍ فحواها:

أنّ للخطاب خصوصيات لا بدّ من المطلّع عليها أن يدرك جوانب مهمة منها ظروف الحال وخصوصية المقام وحال المتلقّي للخطاب التي تمثل محورا مهما في اختيار نسق الكلام الذي يجري عليه الخطاب.

ظاهرة الخروج عن مقتضى الحال ليست ظاهرة نادرة أو تتميزّ بتعبير دون سواه إنّما هي ظاهرة متأصلة في كلام العرب شأنها شأن الظواهر البلاغية الأخرى. إنّ اللجوء إلى العدول عمّا يقتضيه ظاهر الحال كثير في استعمال العرب لما فيه من قدرة على تحقيق اتّساع الدلالة وبراعة التعبير، ممّا يتضمّن من منبّهات أسلوبية ولطائف بيانية يعجز الكلام على مجرى ظاهر الحال على الإتيان بها ولا سبيل لتحقيقها إلا به، فيكون العدول عمّا يقتضيه الظاهر هو ما يقتضيه حال المقام وليس الالتزام بمقتضى الظاهر.

يختلف الأسلوب بين الخبر والإنشاء ولكلّ وجهٍ وسياق يعبرّ فيه أفضل من غيره، وقد يكون العدول عن الطّلب إلى الخبر أفضل من صريح الطّلب لما فيه من الخصائص التي يضيفها كلّ منهما في سياق قول الآخر.

تؤدّي هذه الظاهرة إلى فوائد أخرى خلاف القصد وهو ما يتعلّق بالمتلقّي الذي يحفّزه ويجذب انتباهه ويستفّره للتساؤل وكذا البحث عن المقطع المعدول عنه.

إنّ لحدوث هذه الظاهرة بين الخبر والإنشاء، عدّة منعطفات منها ما يتعلّق بالخبر فيعدل عن مقتضى الظاهر فينزل خالي الدّهن منزلة السائل المتردد أو قد ينزل المنكر منزلة غير المنكر أو العكس ولكل معانٍ تستشف من تحليل الآي الكريمة، وكذا بالنسبة

لإنشاء والخبر فقد يخرج الكلام بينهما إلى خلاف ما يقتضيه الظاهر؛ فقد يكون الخروج بين صيغ الإنشاء ذاتها فيُعدل من صيغة لأخرى، أو خروج الطلب إلى الخبر وذلك لأن للخبر معنى الإثبات والإلزام فيضفي الخبر دلالة التوكيد والمبالغة في الطلب فيدلّ على وجوب الامتثال كأنه قد وقع فعلا، وعلى خلاف هذا، قديخرج الخبر إلى الطلب وقد حُصرت شواهد القرآن فيه ب: الأمر والاستفهام، فيدل الأمر على الانقياد والاستفهام على الإقرار.

أخيرا، وجب القول إن القرآن الكريم عمودٌ ثابتٌ للغة العربية وشاهد من شواهد لسانها المحكم وبلاغتها الساحرة وبيانها البديع، فقد نزل القرآن بلسان عربي أسلوباً وأفكاراً وأنساقاً، فكان خير مُمتلٍ لها.  
والحمد لله ربّ العالمين.

## المصادر والمراجع

### 1. القرآن الكريم

#### المراجع:

1. أحمد حملاوي: زهرة الربيع في المعاني والبيان والبديع، المكتبة التوقيفية، القاهرة
2. إسماعيل بن عمر بن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار ابن حزم، ط1، 2000، بيروت، لبنان.
3. الخطيب القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، الجزء 1، ط3، المكتبة الأزهرية للتراث، 1993
4. عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي: صحيح أسباب النزول، تحقيق مصطفى أبو المعاطي، دار الغد الجديد، ط1، القاهرة.
5. عبد الرحمان حسن حنبكة المدني: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، الجزء الأول، دار القلم، ط1، بيروت، 1996.
6. عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الجزء الأول، ط7، القاهرة، 1998.
7. بن عيسى الطاهر: البلاغة العربية مقدّمات وتطبيقات، دار الكتاب الجديد المتّحد، ط1، بيروت لبنان، 2008.
8. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النصّ، عالم المعرفة، د.ط، د.ت.
9. فضل حسن عباس: البلاغة فنونها وأفنانها، ط2، دار الفرقان، عمان، الأردن.
10. محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، دار ابن حزم، ط1، القاهرة، 2010.
11. محمد بن عبد الله بن حمد السيف: الأثر العقدي في تعدد التوجيه الإعرابي لآيات القرآن الكريم، دار التدمرية، المجلد الأول، الرياض، السعودية، ط1، 1429هـ، 2008.

12. محمد بن علي السكاكي: مفتاح العلوم، ت نعيم زرزور، دار كتب المعرفة، ط2، بيروت، لبنان، 1987.

13. محمد علي الصّابوني: صفوة التفاسير، الجزء الأول، ط1، دار الصابوني، القاهرة، 1997.

14. محمود بن عامر الزّمخشري: الكشف، ت عادل أحمد عبد الوجود- هلي محمد معوّض، الجزء الأول، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 1998م.

15. مصطفى حركات: الصّوتيات والفونولوجيا، دار الآفاق، د.ط، الجزائر.

16. مدخل إلى اللسانيات التّداولية: ت: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، الجزائر، 1992

17. نواري سعودي: في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ وإجراء، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر الطبعة الأولى، سنة 2009م.

18. أبو هلال العسكري: الصناعتين، تحقيق: مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان، 1419

### المعاجم والقواميس:

19. الجرجاني: معجم التّعريفات، تحقيق: محمد الصّدّيق المنشاوي، دار الفضيّلة، د. ط، 2004، القاهرة، مصر.

20. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد 11، ط3، 1994

### الكتب المترجمة:

21. أن رويول-جاك موشلار: التّداولية اليوم علم جديد في التّواصل، ترجمة: سيف الدّين دغفوس- محمد الشّيباني، المنظمة العربية للتّرجمة، ط1، 2003.

22. فرانسوار أرمينيكو: المقاربة التّداولية، تحقيق: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986.

## المجلات والدوريات:

1- مجلة المخبر، العدد7، باديس لهويل، التداولية والبلاغة العربية، تصدر عن مخبر أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، الجزائر، 2011.

2- مجلة عالم الفكر، العدد3، الزواوي بغورة، العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة، يصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2007.

## الرسائل الجامعية:

3- عبد الخالق رشيد: العدول عن مقتضى الظاهر في الخطاب القرآني (مقاربة أسلوبية) ، مذكرة لنيل شهادة دكتوراه، جامعة وهران، 2007

# فهرس

مقدمة ..... أ إلى و

## الفصل الأول

- المبحث الأول : البلاغة والتداولية: ..... 11
- 1- البلاغة ..... 11
- 1.1 - مفهوم البلاغة ..... 11
- 2.1 - علوم البلاغة ..... 14
- 3.1 - علم المعاني ..... 14
- 2- التداولية: ..... 16
- 1.2 - مفهومها : ..... 16
- 2.2 - مبادئها: ..... 17
- 3- صلة التداولية بالبلاغة: ..... 18
- المبحث الثاني: مطابقة الكلام لمقتضى الحال. .... 21
- 1 - الالتزام بمقتضى الظاهر ..... 21
- 2 - الخروج عن مقتضى الظاهر ..... 23
- 1.2 - مفهوم العدول عن مقتضى الظاهر ..... 24
- 2.2 : مستويات الخروج عن مقتضى الظاهر ..... 25
- 3 - الكلام بين الخبر والإنشاء ..... 26
- 1.3 - الخبر ..... 27
- 2.3 - الإنشاء ..... 28

## الفصل الثاني

- المبحث الأول: الخروج في توجيه الخطاب ..... 32
- 1- الخروج في الإنشاء ذاته. .... 32
- 1.1 - خروج الأمر إلى الاستفهام ..... 32
- 2.1 - خروج الاستفهام إلى التعجب ..... 34
- 3.1 - خروج الاستفهام إلى التمني ..... 35
- 4.1 - خروج الاستفهام إلى النهي ..... 36
- 5.1 - خروج الاستفهام إلى الدعاء ..... 36
- 2- خروج الإنشاء إلى الخبر ..... 37
- 1.2 - خروج الأمر إلى الخبر ..... 37
- 2.2 - خروج النهي إلى الخبر ..... 39
- 3 - خروج الخبر إلى الإنشاء ..... 43
- 1.3 - خروج الخبر إلى الاستفهام ..... 43

2.3 - خروج الخبر إلى الأمر.....47

المبحث الثاني : الخروج في وضعية الخبر .....48

1 - وضعية افتراض السؤال .....49

2 - وضعية افتراض الإنكار .....51

3 - وضعية افتراض الإدراك .....54

خاتمة .....56

قائمة المصادر والمراجع .....58

فهرس .....61

## ملخص:

كان الهدف من خلال هذه الدراسة الوقوف على البعد التداولي الاستعمالي للخروج عن مقتضى الظاهر في لغة القرآن الكريم، وخصّصت مادة الدراسة في الخبر والطلب، فأستتبّط من مقام الخطاب وحال المتلقّي مقتضى ظاهر الحال ثمّ أستشفّ العُدول الحاصل، وأقف على الفوائد التي أضافها العُدول من معانٍ وبيانٍ في الخطاب.

The aim of this study was to examine the pragmatic usage of deviating from the apparent meaning in the language of the Holy Qur'an. The study focused specifically on statements and requests. I derived the apparent meaning from the context of the discourse and the state of the recipient, then identified the deviations that occurred. I also explored the benefits these deviations added in terms of meanings and clarity in the discourse.